جامعة الأزهر
كلية أصول الدين بالقاهرة

شبهات حول الوحي

افتراءات ... وردود

دكتور
أحمد رمضان مصطفى دياب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

١٤٣٣هـ - ٢٠١٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وهو سبحانه ولي الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله ، الصادق القول والوعد الأمين ، اللهم صل وسلم وبارك علي هذا النبي الأميّ الكريم ، وعلي آله وصحبه ومَن عمل بسنته واهتدي بهديه إلي يوم الدين.

أما بعد

فإن القرآن الكريم هو كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين – جبريل عليه السلام – بلسان عربي مبين ، علي قلب خاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

هذا القرآن العظيم – المكتوب في المصحف من أول سورة الفاتحة إلي آخر سورة الناس – هو معجز بلفظه ، متعبد بتلاوته ، منقول إلينا بالتواتر[1] ، مقطوع بنسبته إلي الله تعالي [وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ]. [2]

والقرآن المبين هو معجزة الإسلام الكبرى الخالدة ، تحدي الله تعالي الإنس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا ، ولا يزال التحدي والإعجاز بالقرآن قائماً، وسيظل كذلك إلي قيام الساعة ، وصدق الله العظيم القائل [قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَىَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً] [3].

ولأن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز، ولأنه الأصل الأول للدين الإسلامي ، ولأنه المنبع الصافي للصراط المستقيم ، ولأنه لم يترك ناحية من نواحي الإصلاح إلا طرقها ، ولا نظاماً من النظم التي يترتب عليها إسعاد البشرية إلا بينه ووضحه.

---

(١) التواتر: ما رواه جمع عن جمع يستحيل تواطؤهم علي الكذب.

(٢) آخر الآية ٤١، والآية ٤٢ من سورة فصلت.

(٣) الآية ٨٨ من سورة الإسراء.

لهذه الأمور – وغيرها – رأينا نُقَّاد القرآن[1] – قديماً وحديثاً – حرصوا علي إطفاء نور القرآن ، بإثارة الشبهات والمطاعن حول القرآن الكريم.

وقد بدأ النقد القرآني بنزول الوحي علي قلب النبي ﷺ ، فمنذ اللحظة الأولي لنزول القرآن وُجِدَ المعارضون والمشككون والناقدون لهذا القرآن العظيم.

وأول مَن وجه النقد للقرآن الكريم هم كفار قريش ، الذين كفروا بنبوة سيدنا محمد ﷺ، وكذبوا بالقرآن ، وقالوا عنه : أساطير الأولين ، وأنه سحر، وأنه إفك مفتري ، واتهموا الرسول ﷺ بالسحر والجنون والكهانة وقول الشعر، ووصفوه ﷺ بأنه شيطان رجيم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً.

ولقد سجل الله سبحانه وتعالي هذه الانتقادات في القرآن الكريم ، مقرونة بما يبطلها .

وكما فعل المشركون في مكة ، من نقدهم القرآن وإثارة الشبهات حوله ، فعل أهل الكتاب – وخاصة اليهود – في المدينة ، فقد كبر عليهم أن يؤمنوا بسيدنا محمد ﷺ ، وأن يصدقوا بالقرآن العظيم ، وعجزوا عن مجابهته بالحجة والبرهان ، فلجأوا إلي النقد والهذيان ، ووجهوا سهامهم المسمومة إلي القرآن الكريم.

وسار على نهج المشركين وأهل الكتاب ذيولهم وأتباعهم ، من أعداء الإسلام والقرآن ، في كل زمان ومكان ، حتى عصرنا الحاضر.

---

(١) نقاد: جمع ناقد، ونقد الشئ: إظهار ما فيه من عيب أو حسن، وفلان ينتقد الناس: يعيبهم ويغتابهم، المعجم الوجيز ٦٢٩ مادة نقد.

وأقصد باستخدام مصطلح (النقد) الطعن في القرآن الكريم، لأن مصطلح النقد ربما يوهم أن القرآن الكريم نص كسائر النصوص التي تخضع للتقويم .

ونقاد القرآن في المفهوم العام: كل مَن وجه الشبه إلي القرآن الكريم، أو حاول إثارة الشبهات والمطاعن حوله . وأما في المفهوم الخاص: هم جماعة من أعداء الإسلام عكفوا علي دراسة القرآن الكريم والشريعة الإسلامية، بغرض التشكيك في قداسة القرآن وإنكار نبوة محمد ﷺ، وأشهر هؤلاء النقاد: المبشرون والمستشرقون وذيولهم.

يجمع كل هؤلاء الحقد علي الإسلام ونبيه ﷺ ، ومحاولة النيل من كتابه العظيم (القرآن الكريم).

والمتتبع لتاريخ القرآن يجد نقاده كثيرون ، مضى منهم مَن مضى ، وبقى منهم مَن بقى ، وكل هذه المحاولات تريد أن تطفئ نور الله ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، والحمد لله القائل : [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ].[1]

وبمرور الأيام والأزمان تعرض القرآن الكريم لانتقادات كثيرة من أعدائه ، وعلي رأسهم – في العصر الحديث – جماعة المبشرين [2] والمستشرقين[3]، ومَن تبعهم من

---

(١) الآية ٩ من سورة الحجر.

(٢) التبشير يعني الدعوة إلي النصرانية، وهو تعبير أطلقه رجال الكنيسة علي الأعمال التي يقومون بها لتنصير الشعوب غير النصرانية، لا سيما المسلمون .

ومع أن النصرانية دين خاص ببني إسرائيل – كما جاء علي لسان السيد المسيح عيسي عليه السلام – إلا أن أتباع عيسي خالفوا منهجه، وحاولوا تنصير الشعوب بشتي الوسائل المشروعة وغير المشروعة.

ويرجع تاريخ التبشير إلي تاريخ فشل الحروب الصليبية والسيطرة بالقوة علي بلاد المسلمين، ولقد استغل النصاري فكرة التبشير أسوأ استغلال، حيث اتخذوه سلاحاً يخرجون به المسلم من إسلامه، حتى ولو لم يدخل في النصرانية، بل إنهم يكفيهم أن يكفر المسلم بكل دين، ويري بعضهم أن الدخول في النصرانية شرف لا يستحقه المسلم. **وتتلخص أهداف التبشير فيما يأتي:**

١ – القضاء علي الإسلام في نفوس المسلمين. ٢ – القضاء علي وحدة العالم الإسلامي.
٣ – محاولة وقف انتشار الإسلام في العالم. ٤ – تشويه الإسلام في نظر شعوب العالم.
٥ – خلق نوع من الهزيمة النفسية بين المسلمين.
٦ – خدمة الصهيونية العالمية. ٧ – معاونة الاستعمار الغربي والتجسس علي العالم الإسلامي.

ومن أهم أساليبهم التي يستخدمونها لتحقيق تلك الأهداف:

الطب، وأعمال الخير والخدمات الاجتماعية، والصحافة والمكتبات، والنوادي والجمعيات والبعثات الخارجية، وإنشاء المدارس والجامعات الأجنبية، والمؤتمرات المشتركة، ولا مانع من استخدام القوة والعنف، إذا دعت الضرورة وتهيأت الأسباب.

(٣) الاستشراق: حركة ظهرت لتحقيق أهداف التبشير بطريقة لينة مرنة ولكنها أكثر خبثا وأشد مكراً وخداعاً. فبعد أن انكشف للعالم الإسلامي أمر التبشير وأهدافه وأساليبه، فكر الأعداء في تغيير سلاح التبشير بسلاح جديد، هو الاستشراق.

ذيولهم المنتسبين إلي الإسلام .

وفي هذا المحيط التبشيري والاستشراقي لفقت التُّهم ، وظهرت الادعاءات الكاذبة والمزاعم المفتراة الباطلة ، التي أثاروها ضد الإسلام وثقافته وكتابة العظيم ومعجزته الخالدة (القرآن الكريم).

ففي العصر الحديث اهتم علماء التبشير والاستشراق بالدراسات العربية والإسلامية وسخَّروا جهدهم لدراسة القرآن الكريم ونقده ، وبدأ نقدهم لهذا القرآن يرتدي ثوباً علمياً ، هادفين إلي الطعن فيه ، وإقناع البسطاء والجهلاء بأن هذا القرآن فقد قدسيته ، ودخله التحريف منذ عصوره الأولي.

فما انفك أعداء الدين الإسلامي عن تلمس المطاعن في القرآن الكريم والتشكيك فيه.

والناظر المدقق في هذه المطاعن يجد أغلبها مبني علي روايات ضعيفة واهية ، أو حتى موضوعة ، لا صحة لها ، وقد اشتملت عليها بعض المصادر الإسلامية.

وقد تُبني هذه المطاعن علي بعض الشبة التي أوردها بعض الكاتبين في علوم القرآن – بحسن نية – وقاموا بالجواب عليها ، ولم يدر بخلد واحد منهم أنها ستكون ذريعة للطعن في القرآن الكريم ، فتلقفها الأعداء – من المبشرين والمستشرقين وغيرهم – وأضافوا إليها ما شاءت لهم نفوسهم المريضة الحاقدة علي الإسلام والقرآن

والاستشراق يعني حركة دراسة العلوم والآداب والحضارة والثقافة الإسلامية بهدف معرفة عقلية المسلمين وأفكارهم، وأسباب تفوقهم وقوتهم، لضرب هذه القوة من جهة، والاستفادة من علوم المسلمين من جهة ثانية، والتمهيد للاستعمار النصراني لدول العالم الإسلامي وإخضاعها لنفوذه وسلطانه من جهة ثالثة.

وكثير من المستشرقين قساوسة، منتظمون في السلك الكنسي، وبعض منهم يهود ينافقون النصارى، ويخدمون سراً أهدافاً يهودية، لتحقيق المخطط اليهودي العالمي.

ولمزيد من الوقوف علي حركتي التبشير والاستشراق راجع الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، للدكتور: سعد الدين صالح.

أن يضيفوه ، مما هو من بنات الخيال والأوهام.

ولا ننكر أن بعض هذه الشُّبه وتلك المطاعن قد تبني علي روايات صحيحة ، لكن لهذه الروايات معانٍ صحيحة تحمل عليها ، ولها أيضاً محامل أخري بعيدة وغير مقصودة ، فعمل هؤلاء بخبثهم ومكرهم علي صرف تلك المعاني عن الصحيح والمقبول منها ، إلي ما يرضي أحقادهم ويشفي نفوسهم المريضة.

فقد دأب هؤلاء علي أخذ الضعيف وترك الصحيح ، ونقل المشكوك فيه وتصحيحه ، والسكوت عن الصحيح الصريح.

وهذا الفعل منهم ليس بمستغرب ، فقد فضح القرآن الكريم السابقين ومَن سار على دربهم ، وأظهر سوء نيتهم ، حين قال سبحانه وتعالي : [وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا . أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً] (١) .

وتلمس هذه الشبهات من هؤلاء الأعداء – وذيولهم – إن دل علي شئ فإنما يدل علي الحقد الظاهر علي الإسلام ونبيه ﷺ وكتابه القرآن الكريم هذا الحقد الذي لم يستطع الأعداء أن يخفوه ، فأظهروه عبر إثارة تلك الشبهات ، وما تخفي صدروهم أكبر.

ولعل غرضهم من ذلك هو تشكيك المسلمين في دينهم ، وفتنتهم في كتاب ربهم ، وصرفهم عن صراط الله المستقيم ، وشغل العلماء – من المسلمين – بالرد علي تلك الشبهات ، وصد غير المسلمين عن الدخول في الإسلام ، [يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ] (٢).

---

(١) الآيتان ٨١، ٨٢ من سورة النساء.

(٢) الآيتان ٣٢، ٣٣ من سورة التوبة.

ودائماً نقول لهؤلاء المشككين المفترين كما علمنا ربنا سبحانه وتعالي : [هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (١) ، كما نقول لهم : [هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إلا تَخْرُصُونَ] (٢).

وهذه الدراسة المتواضعة هي محاولة مني لخدمة كتاب رب العالمين ، أردت بها التقرب إلي الله تعالي عن طريق تفنيد (٣) بعض هذه الشبهات وتلك المطاعن ، والرد عليها بما يدحضها.

۞ والتزمت في إيراد تلك الشبهات - والرد عليها - سبيل القصد في التناول ، فليس بالإيجاز المخل ولا بالإطناب الممل ، فخير الأمور أوسطها.

علي أنني في تلك المحاولات لا أدَّعي لنفسي فقهاً ولا لبحثي كمالاً ، كما لا أدَّعي الإنشاء والابتكار، ولكن قصارى جهدي أن قرأت ما ذكره هؤلاء النقاد في القديم والحديث ، وفهمت ما قصدوه ، واطلعت علي ما أورده السادة العلماء في هذا المجال ، وحاولت ما استطعت حسن العرض والدراسة.

فجمعت تلك المادة من مصادرها المتعددة ، وقمت بعرضها والرد عليها بين يدي القارئ الكريم في مصدر واحد ، والفضل في ذلك لله تعالي أولاً وآخراً ، ثم لعلماء هذه الأمة الذين أرشدونا إلي تلك الشبهات ، وكتبوا في هذا الموضوع بحوثاً متفرقة.

وقمت - بتوفيق من الله تعالي - بكتابة هذا البحث الموجز ، والذي جاء مشتملاً - بعد هذه التقدمة - على تمهيد وستة مطالب وخاتمة.

أما التمهيد فتناولت فيه التعريف بمصطلحات البحث ، خاصة معنى الشبهة ، ومعنى الوحي وطرقه وصوره.

---

(١) آخر الآية ١١١ من سورة البقرة.

(٢) آخر الآية ١٤٨ من سورة الأنعام.

(٣) التفنيد: اللوم وتضعيف الرأي، يقال: فنَّد فلاناً بمعني خطأ رأيه . أفاده الصحاح ١/ ٤٣٩ مادة فند.

وأما المطالب الستة فجاءت بعدد الشبهات المذكورة في البحث .

فالمطلب الأول في الشبهة الأولى . **والمطلب الثاني** في الشبهة الثانية **والمطلب الثالث** في الشبهة الثالثة . **والمطلب الرابع** في الشبهة الرابعة **والمطلب الخامس** في الشبهة الخامسة . **والمطلب السادس** في الشبهة السادسة .

وأما الخاتمة فتحدثت فيها عن إمكانية حدوث الوحي من خلال الاستدلال بالواقع المعاصر ، خاصة بعض المخترعات العلمية الحديثة ، ثم ذكرت أهم مراجع البحث وفهرس الموضوعات.

وختاماً : أتوجه إلي الله تعالي بالحمد والشكر علي ما وفقني إليه ، ورجائي من كل قارئ لبحثي هذا أو ناظر فيه أن يرشدني إلي عيوبي فيه ، وأن يدلني عليها ، فالدين النصيحة ، والمسلمون بخير ما تعاونوا ، ورحم الله مَن أهدي إليَّ عيوبي ، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وبعد : فهذا بحثي بين يديك ، إن كنتُ وفقتُ فيه إلي ما إليه قصدتُ فالخيرَ أردتُ ، وهو محض فضل من الله تعالي ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإن كانت الأخرى ، فمن نفسي وما أبرؤها وأرجو من الله غفران الذنوب .

والله تعالي من وراء القصد

وصل اللهم علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم

تمهيد

الحمد لله . والصلاة والسلام علي رسول الله . محمد بن عبد الله . وعلي آله وصحبه ومَن عمل بسنته واهتدي بهداه.... وبعد :

فقبل أن نبدأ مع شبهات النقاد حول الوحي والرد عليها إن شاء الله يجدر بنا أن نتعرف علي معني الشبهة ، والوحي ، فنقول وبالله التوفيق :

معني الشبهة :

بالرجوع إلي معاجم اللغة العربية يتبين لنا أن كلمة (شبهة) وما صيغ منها يدور حول معني المماثلة والمشاكلة التي تؤدي إلي الالتباس والاختلاط والخفاء.

قال الجوهري في الصحاح:

(والشُّبْهَةُ : الالتباسُ ، والمُشْتَبِهَاتُ من الأمور: المُشْكِلاتُ ، والمتشابهاتُ : المتماثلاتُ ، والتشبيهُ : التمثيلُ) أ. هـ[1].

وقال ابن منظور في لسان العرب:

(الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ : المِثْلُ ، والجمع : أشباه ، والمشتبهات من الأمور: المشكلات ، والمتشابهات : المتماثلات ، والتشبيه : التمثيل.

والشُّبْهَةُ : الالتباسُ ، وأمور مشتبهة ومشَبَّهَة : مُشْكِلَة ، يُشْبِه بعضها بعضاً. وشَبَّهَ عليه : خَلَّطَ عليه الأمر حتى اشتبه بغيره ، وفي التنزيل العزيز: (وأخر متشابهات) ، قيل معناه : يشبه بعضها بعضاً، وقال أبو الليث : المشتبهات من الأمور المشكلات ، وتقول: شَبَّهْتَ عليَّ يا فلان إذا خلط عليك ، واشتبه الأمر إذا اختلط) أ.هـ.[2]

وقال الراغب في المفردات:

(الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشبيه حقيقتها في المماثلة من جهة الكيفية ، والشُّبْهَةُ هو أن لا

(١) الصحاح ٢/ ١٦٣٣ مادة شبه.

(٢) لسان العرب ١٣/ ٣٠٥ مادة شبه.

يتميز أحد الشيئين من الآخر، لما بينهما من التشابة ، عيناً كان أو معنيً ، قال تعالي : [وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا] ، أي يشبه بعضه بعضاً لوناً لا طعماً وحقيقة ، وقيل: متماثلاً في الكمال والجودة ، والمتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره ، إما من حيث اللفظ أو من حيث المعني) أ. هـ.[1]

وقال في المعجم الوجيز:

(أشبه الشيءُ الشيءَ : ماثله ، وشَبَهَ عليه الأمر: أبهمه عليه حتى اشتبه بغيره ، وشَبَّهَ الشيء بالشيء : مثله ، وشُبِّه عليه ، وله : لُبِّس ، واشتبه الأمر عليه : اختلط ، واشتبه في المسألة : شك في صحتها ، وتشابه الشيئان : أشبه كل منها الآخر حتي التبسا ، والتشبيه : التمثيل ، والشِّبْهُ المثل ، والجمع أشباه، والشُّبْهَة : الالتباس ، وفي الشرع : ما التبس أمره فلا يُدْرَي أحلال هو أم حرام ، وحق هو أم باطل ، والجمع : شُبَهٌ.[2]

والشبيه : المثل ، والمشبوهون : الذين يشك في أمرهم) أ. هـ.[3]

ويتلخص مما سبق:

أن الشُّبْهَة بمعني : الالتباس والاختلاط والخفاء ، ومنه قولهم : اشتبهت الأمور: اختلطت والتبست وخفي أمرها ، واشتبهت القبلة : خفيت علي من يريدها ، فلا يدري في أي الجهات هي ، ويقال للذين يشك في أمرهم (مشبوهون) ، أي لا يدري حالهم ، من حيث البراءة أو الاتهام.

وقولهم : شبه عليه الأمر تشبيهاً : لبس عليه ، وتشابها : أشبه كل منهما الآخر حتي التبسا ، ويقولون : المشتبه والمتشابه للملتبس المختلط الخفي أمره ، والاشتباه والتشابه : التماثل ، ولعل التسمية بذلك لأن المماثلة والمشاكلة من شأنها أن تؤدي إلي الالتباس

(١) مفردات غريب القرآن، صفحة ٢٥٤ مادة شبه.

(٢) قلتُ: ويجمع أيضاً علي شبهات، لأن (شُبْهَة) علي وزن فعله، فتجمع علي فعلات، كحجرة وحجرات، وغرفة وغرفات، وظلمة وظلمات، والله أعلم.

(٣) المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية بمصر، صفحة ٣٣٤ مادة شبه.

والاختلاط والخفاء ، من حيث إنها تؤدي إلي عجز الذهن عن التمييز بين الأمور المتشابهة ، أي المتماثلة المختلطة.

﴿ معني الوحي وطرقه وصوره ﴾

يحسن بنا قبل إيراد الشبهات المثارة حول الوحي والرد عليها ، أن نلم إلمامة موجزة بمعني الوحي في اللغة والشرع ، وطرقه وصوره. انطلاقاً من أن الإلمام بهذه الأمور والوقوف عليها ، يزيد في إيضاح المراد ، ويساعد في فهم الشبهات والرد عليها. فنقول وبالله التوفيق :

الوحي لغة :

الوحي في اللغة هو الإعلام في خفاء وسرعة ، مأخوذ من الإيحاء ، وهو نوع من الإعلام الخفي السريع .

ويصدق هذا المعني علي الأمور الآتية :

الإلهام ، الأمر ، الإشارة ، الكلام الخفي (الوسوسة) ، الكتابة ، التدبير والتكوين والقضاء والتقدير. (١)

وهذه المعاني وردت في القرآن الكريم .

فقد جاء الوحي بمعني الإلهام ، فيقال : أوحي إليه أي ألهمه وعرّفه ، ومنه قوله تعالي : [وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ] (٢)، أي : ألهمها طرق معايشها.

ومنه أيضاً قوله تعالي : [وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ...] (٣). أي ألهمناها أن تفعل ذلك.

(١) راجع: الصحاح ٢/ ١٨٢٥، لسان العرب ١٥/ ٣٧٩ وما بعدها، أساس البلاغة ٢/ ٣٤٤، المفردات / ٥١٥، المعجم الوجيز / ٦٣٣، القاموس القويم للقرآن الكريم ٢/ ٣٢٤، كله في مادة وحي.

(٢) الآية ٦٨ من سورة النحل.

(٣) أول الآية ٧ من سورة القصص.

وجاء الوحي بمعني الأمر، ومنه قوله تعالي: [وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي] (١). يعني أمرتهم بالإيمان.

ومنه أيضاً قوله تعالي (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بأن ربك أوحي لها) (٢)، يعني أمرها ، وقوله تعالي (إن أتبع إلا ما يوحي إلي)(٣)، أي إلا ما أمرني الله به عن طريق الوحي .

وجاء الوحي بمعني الإشارة ، فيقال : أوحي – ووحي – إليه : أشار إليه وأومأ ، ومنه قوله تعالي عن زكريا عليه السلام : [فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا] (٤)، أي أشار إليهم ، لأنه صائم عن الكلام بأمر الله تعالي.

وجاء الوحي بمعني الكلام الخفي (الوسوسة) ، يقال: أوحيت - ووحيت - إليه الكلام ، إذا كلمته بكلام خفي ، ومنه قوله تعالي : [وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً] (٥) ، وكذا قوله تعالي : [وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ] (٦).

فالوحي في الآيتين بمعني الوسوسة ، لأنها تكون خفية ، وذلك بالوسواس المشار إليه بقوله تعالي : [مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ] (٧).

وجاء الوحي بمعني الكتابة ، وقد جاء إطلاق الوحي علي الكتابة في كلام العرب كثيراً ، يقال: أوحي – ووحي – إليه : أي كتب.

وقد حمل البعض علي ذلك قوله تعالي : [فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى

(١) أول الآية ١١١ من سورة المائدة.

(٢) الآيتان ٤، ٥ من سورة الزلزلة.

(٣) من الآية ١٥ من سورة يونس.

(٤) الآية ١١ من سورة مريم.

(٥) أول الآية ١١٢ من سورة الأنعام.

(٦) من الآية ١٢١ من سورة الأنعام.

(٧) الآية ٤ من سورة الناس.

إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا....].(١)

فقد قيل : أوحي إليهم : رمز وأشار، وقيل : أوحي إليهم : كتب ، وهذا القول الثاني مروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة.(٢)

وجاء الوحي بمعني القضاء والتدبير والتكوين والتقدير، ومنه قوله تعالي [فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا...] (٣)، أي جعلها تسير بانتظام علي حسب ما قضي لها وقدر، لا يتم فيها أمر إلا بقدره سبحانه وقضائه ، وبتدبيرٍ علي وفق حكمته وإرادته.

أما الوحي في الشرع :

فيمكن أن يُعَرَّف بأنه : إعلام الله تعالي مَن اصطفاه مِن عباده ما أراد مِن هداية ، بطريقة خفية سريعة .

❁ ومما تجدر الإشارة إليه أن الوحي يطلق علي أمرين :

الأول : علي الأمر المُوحَي به ، من إطلاق المصدر علي المفعول به ، ومنه قوله تعالي : [قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ] (٤) ، أي أنذركم بالقرآن الذي أوحاه الله تعالي إليَّ.

الثاني : علي المَلك الذي أرسله الله تعالي إلي الرسول، ليبغله ما أمر الله به ، ومنه قوله تعالي : [وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ] (٥).

طرق الوحي :

للوحي طرق ثلاثة ، أشار إليها القرآن الكريم ، في قوله تعالي : [وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ

(١) أول الآية ١١ من سورة مريم.

(٢) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: (أوحي إليهم) كتب لهم علي الأرض، أو علي التراب، وري عن عكرمة: كتب علي ورقة . روح المعاني ١٦/ ١٠٣.

(٣) أول الآية ١٢ من سورة فصلت.

(٤) أول الآية ٤٥ من سورة الأنبياء.

(٥) ينظر: القاموس القويم للقرآن الكريم ٢/ ٣٢٤ مادة وحي.

يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ] (١) .

الطريقة الأولي : الإلهام .

وهو عبارة عن الإلقاء في القلب ، يقظة أو مناماً .

فمن اليقظة ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : (إن رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعِي (٢) أنه لن تموت نفس حتي تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب) (٣) . والمعني : إن جبريل ألقي في قلبي أنه... الخ .

ومن المنام الرؤيا الصادقة الصالحة ، كرؤيا الخليل إبراهيم عليه السلام، حين رأي في نومه أن يذبح ولده ، ولو لم تكن وحياً ما أقدم الخليل علي ذبح ولده ، قال تعالي : (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ . فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أري في المنام أني أذبحك فانظر ماذا تري قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم). (٤)

وقد كانت الرؤيا الصادقة أول ما بُدِئَ به الرسول ﷺ من الوحي ، كما روي عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : (أول ما بُدِئَ رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة – وفي رواية الصادقة – في النوم ، فكان لا يري رؤيا إلا جاءت مثل فلق

(١) الآية ٥١ من سورة الشورى.

(٢) النفث: شبيه بالنفخ، وهو قذف الريق القليل، والنفث أقل من التفل، ومنه نفث الراقي والساحر: أن ينفث في عقده، قال تعالي: (ومن شر النفاثات في العقد)، ودم نفيث إذا نفثه الجرح. الصحاح ١/ ٢٧٥، المفردات / ٥٠٠ مادة نفث.

والرُوع – بضم الراء–: القلب والعقل، يقال: وقع ذلك في رُوعي أي في خلدي وبالي . الصحاح ٢/ ٩٤٨ مادة روع.

(٣) كنز العمال ٤/ ١٩، والحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة / ٢٨٦٦.

(٤) الآيات ١٠١ : ١٠٧ من سورة الصافات.

الصبح ، ثم حُبِبَ إليه الخلاء..... [1] وفلق الصبح : ضياؤه، وإنما يقال ذلك في الشئ الواضح البين.

الطريقة الثانية : المكالمة من وراء حجاب.

والمراد بذلك أن يتم الوحي أو تقع المكالمة في اليقظة ، مباشرة وبدون واسطة ، بين النبي ورب العزة تبارك وتعالي ، لكنها من وراء حجاب فاصل بين الألوهية والبشرية ، بحيث يسمع النبي كلام الله عز وجل منه مباشرة ، لكنه لا يراه.

ومن ذلك تكليم الله تعالي موسي عليه السلام في جبل الطور، حين ناداه بالواد المقدس طوي ، قال تعالي : [وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۝ إذ رأي ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد علي النار هدي . فلما أتاها نودي يا موسي . إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوي . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحي . إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري). [2]

ولعل تلك المكالمة هي التي أشار إليها القرآن في قوله تعالي : [وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً] [3].

ومن ذلك أيضاً ما وقع لنبينا محمد ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج ، حين فرض الله تعالي عليه – وعلي أمته – الصلاة في السماوات بين يدي الله تبارك وتعالي ، فقد ورد في حديث الإسراء والمعراج الطويل عنه ﷺ أنه قال : فأوحي الله تعالي إليَّ ما أوحي . ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، وذكر في الحديث ما كان من مراجعة بين موسي وربه عز وجل حتي قال ﷺ : فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالي وبين موسي

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي حديث رقم ٣، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلي رسول الله ﷺ حديث رقم ٢٥٢. صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ١/ ٣٠، صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٤٧٤.

(٢) الآيات ٩: ١٤ من سورة طه، وقد جاءت الإشارة إلي تلك المكالمة أيضاً في سورة النمل - الآيات ٨: ١٢ - وفي سورة القصص، الآيات ٣٠: ٣٥.

(٣) آخر الآية ١٦٤ من سورة النساء.

عليه السلام ، حتي قال : يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليله ، لكل صلاة عشرٌ، فذلك خمسون صلاة... الحديث. [1]

الطريقة الثالثة :

أن يرسل الله تبارك وتعالي أمين الوحي – جبريل عليه السلام – فيوحي بإذن الله سبحانه إلي النبي من الأنبياء ما يشاء الله تعالي أن يوحيه إليه.

وهذه الطريقة الثالثة هي الأكثر وقوعاً لنبينا محمد ﷺ ، وهي التي تلقي بها النبي ﷺ القرآن عن ربه ، بواسطة جبريل عليه السلام ، قال تعالي : [وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىَ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ]. [2]

فلم يكن الوحي بالقرآن إلا بهذه الطريقة ، واضحا جلياً ، وفي حال اليقظة ، فلا يظن ظان أن الوحي بالقرآن وقع إلهاماً أو نفثاً في الروع ، كما في الطريقتين السابقين من طرق الوحي.

ولقد كان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صور مختلفة ومنها :

الصورة الأولي :

أن يظهر جبريل عليه السلام للنبي ﷺ في صورته الحقيقية الملكية ، التي خلقه الله تعالي عليها ، فيوحي إلي النبي ﷺ ما شاء الله تعالي أن يوحيه إليه.

ولقد رأي النبيُ ﷺ جبريلَ عليه السلام علي صورته الحقيقية مرتين.

الأولي : في بداية نزول الوحي عليه ﷺ ، **والثانية** : في ليلة الإسراء والمعراج ، وقد أشار القرآن الكريم إلي المرتين في قوله تعالي : (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝ ذو مرة فاستوي . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلي . فكان قاب قوسين أو أدني . فأوحي إلي عبده ما

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، حديث رقم ٣٨٨٧، وأخرجه مسلم – واللفظ له – في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، برقم ٢٥٩، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٧/ ٢٤٢، وصحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٤٨٧.

(٢) الآيات ١٩٢:١٩٥ من سورة الشعراء.

أوحي. ما كذب الفؤاد ما رأي. أفتمارونه علي ما يري. ولقد رآه نزله أخري. عند سدرة المنتهي. عندها جنة المأوي. إذ يغشي السدرة ما يغشي. ما زاغ البصر وما طغي). [1]

وقال تعالي أيضاً : [وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ] [2] .

قال الألوسي : أي وبالله تعالي لقد رأي صاحبكم رسول الله ﷺ ، الرسول الكريم جبريل عليه السلام ، بالصورة التي خلقه الله تعالي عليها ، له ستمائة جناح ، بالأفق - بالناحية - الأعلى أ. هـ. [3]

وكما أشار القرآن إلي ذلك ، أشارت السنة الصحيحة أيضاً إليه .

فقد أخرج الإمام مسلم بسنده عن مسروق قال : كنت متكئاً عند عائشة. فقالت : يا أبا عائشة! ثلاث مَن تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية. قلت : ما هن؟ قالت : مَن زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال وكنت متكئاً فجلست. فقلت : يا أم المؤمنين! أنظريني ولا تعجليني. ألم يقل الله عز وجل : { ولقد رآه بالأفق المبين } و{ ولقد رآه نزلة أخرى} ، فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ. فقال : (إنما هو جبريل. لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين. رأيته منهبطاً من السماء. ساداً عِظَمُ خلقه ما بين السماء إلى الأرض.... الحديث). [4]

الصورة الثانية :

أن يظهر جبريل عليه السلام في صورة بشر - إنسان - يراه الحاضرون ويستمعون إلي كلامه.

(١) الآيات ٥ : ١٧ من سورة النجم.

(٢) الآية ٢٣ من سورة التكوير.

(٣) روح المعاني ٣٠/ ١٠٦.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب معني قوله عز وجل (ولقد رآه نزلة أخري)، برقم ٢٨٧، وأخرجه البخاري - مختصراً - في كتاب التفسير، من سورة النجم، في قوله تعالي (ولقد رآه نزله أخري)، برقم ٤٨٥٥. صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ٨، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٨/ ٤٧٢.

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن جبريل عليه السلام كان إذا أتي النبي ﷺ في صورة بشر - إنسان - ، إما أن يأتيه في صورة إنسان معلوم للحاضرين ، وإما أن يأتيه في صورة إنسان غير معلوم.

ومن الحالة الأولي ما كان جبريل عليه السلام يظهر للنبي ﷺ في صورة الصحابي الجليل دحية الكلبي. [1]

ومما يدل علي ذلك ما أخرجه البخاري بسنده عن أبي عثمان النهديّ ، قال : أنبئت أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ وعنده أم سلمة ، فجعل يحدث ثم قام ، فقال النبي ﷺ لأم سلمة : (من هذا). أو كما قال، قال: قالت : هذا دحية ، قالت أم سلمة : وأيم الله ما حسبته إلا إياه ، حتى سمعت خطبة نبي الله ﷺ يخبر خبر جبريل [2] .

ومن الحالة الثانية ما كان جبريل عليه السلام يظهر للنبي ﷺ في صورة رجل لا يعرفه الحاضرون ، ومما يدل علي ذلك ، ما أخرجه الإمام مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب. شديد سواد الشعر. لا يُرى عليه أثر السفر. ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه. ووضع كفيه على فخذيه. وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ : (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وتقيم الصلاة. وتؤتي الزكاة. وتصوم رمضان. وتحج البيت، إن استطعت إليه سبيلاً). قال : صدقت. قال فعجبنا له. يسأله ويصدقه.

قال : فأخبرني عن الإيمان. قال : (أن تؤمن بالله ، وملائكته، وكتبه ، ورسله ،

(١) دحية بن خليفة الكلبي، صحابي مشهور، كان موصوفاً بالجمال، حيث كان من أجمل الناس.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، برقم ٤٩٨٠. صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٨/ ٦١٩.

واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره) . قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال : (أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك).

قال : فأخبرني عن الساعة. قال: (ما المسئول عنها بأعلم من السائل)

قال : فأخبرني عن أمارتها. قال: (أن تلد الأمة ربتها. وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء ، يتطاولون في البنيان).

قال ثم انطلق . فلبثت ملياً. ثم قال لي[1] : (يا عمر! أتدري من السائل؟) قلت : الله ورسوله أعلم . قال: (فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم).[2]

وقريب منه ما جاء في الصحيحين ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس ، فأتاه رجل فقال يا رسول الله ما الإيمان قال : (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر) .

قال يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال :(الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان) .

قال يا رسول الله ما الإحسان ؟ قال : (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنك إن لا تراه فإنه يراك) .

قال يا رسول الله متى الساعة ؟ قال : (ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها ، وإذا تطاول رعاة الإبل البُهْم في البنيان ، في خمس لا يعلمهن إلا الله) ، ثم تلا ﷺ : (إن الله عنده علم الساعة... الآية)[3] .

(١) يعني رسول الله ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم ١، صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ١٧٨.

(٣) الآية ٣٤ – والأخيرة – من سورة لقمان، وفيها يقول تعالى: (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير) .

ثم أدبر[1] فقال ردوه ، فلم يروا شيئاً ، فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم .

وفي رواية مسلم : ...ثم قام الرجل. فقال رسول الله ﷺ (ردوه عليَّ) . فالتمس فلم يجدوه. فقال رسول الله ﷺ (هذا جبريل أراد أن تعلموا. إذا لم تسألوا)[2] .

الصورة الثالثة :

أن يأتي جبريل عليه السلام النبي ﷺ خفيه ، فلا يري ، ولكن يظهر أثره عليه ﷺ ، ففي هذه الصورة كان أمين الوحي جبريل عليه السلام يهبط علي النبي ﷺ خفية فلا يراه أحد ، حتي النبي ﷺ ، ولكن يظهر أثر التغير والانفعال علي وجه النبي ﷺ ، كأن يغط غطيط النائم ، أو يتصبب جبينه عرقاً في اليوم شديد البرد .

ويكون وقعه عليه ﷺ كوقع الجرس إذا صلصل في أذن سامعه ، أو كدوى النحل[3].

ويقلع الوحي عن النبي ﷺ وقد وعي عنه ﷺ ما قال ، وكان ذلك أشد الأنواع علي النبي الكريم عليه السلام.

ومما يدل علي ذلك ما جاء في الصحيحين عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟

فقال رسول الله ﷺ : (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليَّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول) .

(١) يعني الرجل السائل.

(٢) متفق عليه، أخرجه مسلم- واللفظ له- في نفس الموضوع السابق، برقم ٧، صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ١٨١.

وأخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، برقم ٣٧، وأخرجه في كتاب التفسير، باب ومن سورة لقمان، برقم ٤٧٧٧، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ١/ ١٤٠، ٨/ ٣٧٣.

(٣) والحكمة في سماع هذه الأصوات أن يتفرغ سمعه ﷺ، ولا يبقي فيه ولا في قلبه مكان لغير صوت الملك.

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً.(١)

وفي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت قال:

(كان نبي الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي ، كُرِبَ لذلك ، وتربَّد وجهه). (٢)

وبعـــــــد:

فهذا ما أردت توضيحه – باختصار – في معني الوحي وطرقه وصوره راجياً أن يعين ذلك علي تفهم الشبهات المثارة حول الوحي والرد عليها

فما هي شبهات المضلين حول ظاهرة الوحي . وكيف نرد عليها ؟

هذا ما سيتضح في الكلام الآتي إن شاء الله

والله من وراء القصد

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري – واللفظ له – في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، حديث رقم ٢، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد، حديث رقم ٢٣٣٠ صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ١/ ٢٦، صحيح مسلم بشرح النووي ٨/ ٩٧.

ومعني (يفصم) أي يقلع ويتجلي عني، ومعني (وعيت) أي جمعت وفهمت وحفظت. ومعني (يتفصد) مأخوذ من الفصد، وهو قطع العرق لإسالة الدم، شبه جبينه ﷺ بالعرق المفصود، مبالغة في كثرة العرق، وفي قولها: (في اليوم الشديد البرد) دلالة علي كثرة معاناة التعب والكرب، عند نزول الوحي• ذكره ابن حجر في فتح الباري ١/ ٢٨ وما بعدها.

(٢) أخرجه مسلم في الموضع السابق برقم ٥٣٣٤، ومعني (كرب) من الكربة وهو الغم الذي يأخذ بالنفس كالكرب، يقال: كربه الغم إذا اشتد عليه •

الصحاح ١/ ٢١٤ مادة كرب، و(تربد) أي تغير وصار كلون الرماد.

﴿ المطلب الأول ﴾

الشبهة الأولى

قولهم : إن ظاهرة الوحي في الإسلام ظاهرة شاذة عن غيرها من الرسالات ، ولم تشر الرسالات السابقة إلي هذه الظاهرة.

ونرد علي ذلك فنقول :

إن قولهم هذا باطل لا يستند إلي دليل أو برهان ، ولعلهم استنبطوا ذلك من خلال دراستهم المقارنة للرسالات السماوية ، فلقد حاولوا – من خلال دراستهم – أن يقفوا علي أوجه الشبة والاختلاف بين الأنبياء عليهم السلام ، وخاصة منذ عهد إبراهيم عليه السلام إلي عهد محمد ﷺ ، ليصلوا إلي القول بمخالفة الوحي المحمدي للوحي إلي الأنبياء السابقين.

فزعموا أن الوحي إلي محمد ﷺ ظاهرة شاذة عن غيرها من الرسالات السابقة ، لوجود الفرق بين ما جاء في الكتب السابقة من هداية الأنبياء السابقين ، وما ذكرته السيرة النبوية عن حالة (اللاوعي) التي كان يتعرض لها محمد ﷺ أثناء الوحي ، علي حد زعمهم.

حيث إنهم زعموا أن السيرة النبوية صوَّرت الرسول ﷺ في حالة غيبوبة – اللاوعي – أثناء تلقيه الوحي ، واستدلوا علي زعمهم هذا بما كان يحدث للنبي ﷺ أثناء الوحي إليه ، من أنه كان يغط غطيط النائم ، أو يتصبب جبينه عرقاً في اليوم الشديد البرد ، واستدلوا كذلك بما روي عن عبادة بن الصامت أنه قال : (كان نبي الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي كُرِبَ لذلك ، وتَرَبَّدَ وجهه) (١) • وما روي عن عبادة بن الصامت أيضاً أنه قال : (كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي نكَسَ رأسه ، ونكَسَ أصحابه رءوسهم ، فلما أتلي عنه رفع رأسه). (٢)

(١) سبق تخريجه وشرحه في الصفحة السابقة.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي، برقم ٢٣٣٥، صحيح

وهذا الزعم منهم زعم باطل وافتراء واضح ، وهو مردود عليهم لاعتبارات عدة ، منها :

أولاً : لأن طرق الوحي إلي جميع الأنبياء واحدة ، ذكرها الحق تبارك وتعالي في قوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء)[1]. وهذا عام لجميع الأنبياء ، بدلالة قوله تعالي (بشر) .

فالوحي الإلهي لنبينا محمد ﷺ إذا لم يكن فريداً ولا شاذاً ، بل كانت له سوابق عديدة ، خص الله تعالي بها بعض أنبيائه ورسله ، ولذلك خاطب الله سبحانه نبيه ﷺ بقوله : [إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً] [2] .

وقال تعالي : [وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً] . [3]

وقال تعالي: [شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ....]. [4]

وثانياً : أن أكثر النصوص التي استندوا إليها واستدلوا بها من الكتب التي بين أيديهم – التوراة والإنجيل – وما جاء في العهدين القديم والجديد وما جاء في الأسفار والأناجيل ، من الوحي إلي السابقين ، قد جاء موافقاً تماماً لما نطق به القرآن الكريم ،

مسلم بشرح النووي ٨/ ٩٧، ومعني (أتلي عنه) أي أرتفع عنه الوحي، وفي رواية: (أجلي) أي أزيل عنه، وفي رواية (انجلي) أي زال عنه، والله أعلم.

(١) الآية ٥١ من سورة الشورى.

(٢) الآية ١٦٣ من سورة النساء.

(٣) الآية ٧ من سورة الأحزاب.

(٤) أول الآية ٧ من سورة الشورى.

ونزل به الوحي علي نبينا محمد ﷺ ، وهذا من العجب العجاب ، أن تكون النصوص التي استدلوا بها شاهدة عليهم لا شاهدة لهم.

ومن ذلك علي سبيل المثال لا الحصر :

ما استدلوا به من التوراة بخصوص نبي الله موسي عليه السلام ، فقد جاء : (..وبينما كان يرعى الغنم في الفيافي البعيدة ذات مرة ، قادته قدماه إلي جبل الرب ، جبل الطور، وهناك تبدي له ملاك الرب كشعلة نار خرجت من شعاب شجرة شوك ، وحين نظر إليها رأي الشجرة والنار تشتعل فيها دون أن تمسها بسوء ، هنا حدَّث موسي نفسه ؛ سأذهب إلي هناك لأنظر في ذاك الأمر العجيب ، كيف لا يشتعل الشوك، وحين رأي الرب مقدمه ناداه من بين الشعاب : يا موسي ! يا موسي ! ورد بقوله : ها أنا ذا ، فقال الرب لا تقترب ، اخلع نعليك لأن الأرض التي تقف عليها أرض مقدسة ، وقال : أنا رب أبيك ، رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وغطي موسي وجهه خشية أن يري الله جهرة ، هنا كلفه ربه بإخراج بني إسرائيل من مصر.....) [1].

والقرآن الكريم قد ذكر ذلك أيضاً في قصة قريبة الشبه من هذا ، حيث قال تعالي : (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى . إذ رءا ناراً فقال لأهله امكثوا إني أنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد علي النار هدي . فلما أتاها نودي يا موسي . إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوي . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحي . أنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري.... الآيات). [2]

فقل لي بالله عليك : أين الشذوذ في الوحي المحمدي عما جاءت به التوراة ، حتي بعد تحريفها ؟

وثالثاً : زعمهم أن السيرة النبوية صوَّرت الرسول ﷺ في حالة غيبوبة – اللاوعي –

---

(١) المستشرقون والقرآن ٥٣ وما بعدها.

(٢) الآيات ٩: ١٣ سورة طه، وقد جاءت تلك القصة بمثل ذلك في الآيات ٧: ١٢ من سورة النمل، والآيات ٣٢: ٢٩ من سورة القصص.

فكل ذلك مما يدل دلالة قطعية علي أن الوحي المحمدي ليس شاذاً عن الوحي إلي الأنبياء السابقين ، كما يدل علي أن النبي ﷺ كان أثناء الوحي إليه ، على أعلى درجات الوعي والإدراك والخشوع المطلق ، وما أثر الوحي ونتائجه – وهو القرآن – إلا دليل صدق علي ما قلناه .

فأيّ عيب في ظاهرة الوحي الإسلامي ، وأين اللاوعي أيها الجاهلون.

﴿ المطلب الثاني ﴾

ﷺ الشبهة الثانية ﷺ

قولهم : إن حقيقة الوحي ما كانت إلا نوبات صرع ، تنتاب الرسول ﷺ من وقت لآخر.

ونرد علي هذا الزعم الباطل فنقول :

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ، فهذا أيضاً منهم افتراء وكذب وضلال.

إن تفسير نقاد القرآن ظاهرة الوحي بأنها حالات صرع ، كانت تنتاب الرسول ﷺ من وقت لآخر، لعلهم بنوه علي الافتراء السابق من أن السيرة النبوية صورت النبي ﷺ أثناء تلقيه الوحي في حالة اللاوعي .

وهذا أيضاً منهم افتراء وكذب ، وحقيقة ما كان يحدث للنبي ﷺ أثناء الوحي لا يتوافق مع أعراض الصرع ، كما يؤكدها العلم الحديث.

فالصرع – كما يقول الأطباء – عبارة عن مرض يصيب الجهاز العصبي ، ويميزه فقدان الوعي ، وكذلك التقلصات في كثير من الأحيان.

ويبدأ الصرع عادة في الطفولة ، والمصابون بالصرع هم أشخاص انفعاليون وغير متزنين ، مهيأون للتقوقع بعيداً عن الدنيا ، والعيش في الأوهام ، وعادة ما تنشأ نوبة الصرع من الضغط الانفعالي ، أو التهيج اللاإرادي ، أما عن أعراض الصرع كما يثبتها الطب الحديث :

ففي الحالات الثقيلة تحدث النوبة فجأة ، ويسقط المصروع كاللوح ، وغالباً ما يؤذي نفسه ، وتنبسط العضلات وتنقبض بشدة ، أما الوجه فيكون أولاً شاحباً ، ثم ينقلب إلي الازرقاق ، مع انسداد مجري التنفس، وبعد بضع ثوان تأخذ العضلات في الارتعاش والتشنج ، وتدور حدقتا العين ، وينقبض الفك ويرتخي ، وقد يعض المصروع لسانه بقوة..... وتدريجياً يروح المريض في غيبوبته ، فترتخي العضلات حينئذ

فكل ذلك مما يدل دلالة قطعية علي أن الوحي المحمدي ليس شاذاً عن الوحي إلي الأنبياء السابقين ، كما يدل علي أن النبي ﷺ كان أثناء الوحي إليه ، على أعلى درجات الوعي والإدراك والخشوع المطلق ، وما أثر الوحي ونتائجه – وهو القرآن – إلا دليل صدق علي ما قلناه .

فأيّ عيب في ظاهرة الوحي الإسلامي ، وأين اللاوعي أيها الجاهلون.

﴿ المطلب الثاني ﴾

الشبهة الثانية

قولهم : إن حقيقة الوحي ما كانت إلا نوبات صرع ، تنتاب الرسول ﷺ من وقت لآخر.

ونرد علي هذا الزعم الباطل فنقول :

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ، فهذا أيضاً منهم افتراء وكذب وضلال.

إن تفسير نقاد القرآن ظاهرة الوحي بأنها حالات صرع ، كانت تنتاب الرسول ﷺ من وقت لآخر، لعلهم بنوه علي الافتراء السابق من أن السيرة النبوية صورت النبي ﷺ أثناء تلقيه الوحي في حالة اللاوعي .

وهذا أيضاً منهم افتراء وكذب ، وحقيقة ما كان يحدث للنبي ﷺ أثناء الوحي لا يتوافق مع أعراض الصرع ، كما يؤكدها العلم الحديث.

فالصرع – كما يقول الأطباء – عبارة عن مرض يصيب الجهاز العصبي ، ويميزه فقدان الوعي ، وكذلك التقلصات في كثير من الأحيان.

ويبدأ الصرع عادة في الطفولة ، والمصابون بالصرع هم أشخاص انفعاليون وغير متزنين ، مهيأون للتقوقع بعيداً عن الدنيا ، والعيش في الأوهام ، وعادة ما تنشأ نوبة الصرع من الضغط الانفعالي ، أو التهيج اللاإرادي ، أما عن أعراض الصرع كما يثبتها الطب الحديث :

ففي الحالات الثقيلة تحدث النوبة فجأة ، ويسقط المصروع كاللوح ، وغالباً ما يؤذي نفسه ، وتنبسط العضلات وتنقبض بشدة ، أما الوجه فيكون أولاً شاحباً ، ثم ينقلب إلي الازرقاق ، مع انسداد مجري التنفس، وبعد بضع ثوان تأخذ العضلات في الارتعاش والتشنج ، وتدور حدقتا العين ، وينقبض الفك ويرتخي ، وقد يعض المصروع لسانه بقوة..... وتدريجياً يروح المريض في غيبوبته ، فترتخي العضلات حينئذ

وينام لعدة ساعات ، ثم يستيقظ في نهاية النوبة وعقله يعاني بعض التشويش.

وفي بعض الحالات لا تنتهي النوبة بعد بضع دقائق ، بل تستمر مع ازدياد النبض وارتفاع درجة الحرارة.

وقد يحدث أن يفيق المريض ظاهرياً فيمارس أموره من غير أن يكون واعياً فعلاً لما يقول ويفعل ، ومن غير المستبعد أن يرتكب مثل هذا الشخص جريمة قتل في هذه الحالة.

أما في نوبات الصرع الخفيفة ، فقد يغيب الوعي لبضع ثوان ، دون أن تصاحبه آية تقلصات ، وقد يعرف عن مثل هذا المريض أنه عرضة لشحوب الوجه المفاجئ وفقدان خيط الحديث. (١)

تلك أعراض الصرع كما يؤكدها العلم الحديث.

فهل كان محمد ﷺ علي مثل هذه الحالة أثناء الوحي ، أم أنه كان علي أعلي درجات الوعي والإدراك.

إن المتتبع لظاهرة الوحي المحمدي يلحظ عكس ما زعمه نقاد القرآن الكريم من أن محمداً ﷺ كثيراً ما فقد وعيه ، وسقط علي الأرض ، كمن فارق الحياة ، ويتشنج أحياناً ، وأن هذه الحالات هي التي أدت إلي الظن أو الزعم بأن محمداً كان يعاني صرعاً.

لكن الثابت في روايات الوحي يدل علي عكس ما زعموه ، فما كان رسول الله ﷺ يسقط علي الأرض ، وما كان شديد الحساسية من الوحي ، وما كان يستتر بعيداً عن الناس ، بل كان ﷺ علي العكس تماماً من ذلك.

وما يدل علي ذلك ما أخرجه البخاري عن زيد بن ثابت رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ أملي عليه : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله)(٢) ، فجاءه ابن أم مكتوم وهو يُمِلُّها عليَّ ، فقال : يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت -

(١) دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية صفحة ٢٩ وما بعدها.

(٢) أول الآية ٩٥ من سورة النساء.

وكان رجلاً أعمي – فأنزل الله تبارك وتعالي علي رسوله ﷺ وفخذه علي فخذي ، فثقلت عليَّ حتي خفت أن ترض(١) فخذي، ثم سري عنه، فأنزل الله عز وجل: (غير أولي الضرر).(٢)

وروي أيضاً أن النبي ﷺ جاءه الوحي وهو علي ناقته ، فبركت الناقة ورغت من شدة الألم . ولو كان النبي ﷺ مصروعاً كما يزعم الجاهلون لسقط من علي ناقته حين أتاه الوحي ، وبم يفسر نقاد الوحي برك الناقة وألمها ، أكانت الناقة مصروعة هي الأخرى ، أم هو الحقد والحسد الذي دفعهم إلي هذا الجهل ، وتلك الافتراءات الباطلة.

والعجيب أن بعض الكتاب من المبشرين والمستشرقين ونقاد القرآن قد بدأوا يشعرون أن اتهام النبي ﷺ بالصرع صورة تثير الاعتراض ، حتي من الغربيين أنفسهم ، وتفضح زيف ادعاء المنهج العلمي الذي يستتر به نقاد القرآن الكريم.

فبدأوا هم أنفسهم يردون علي هذا الزعم الباطل ، وأذكر من ذلك علي سبيل المثال لا الحصر.

يقول المستشرق بودلي نافياً عن الرسول ﷺ ظاهرة الصرع :

يؤكد كل طبيب أن المصاب بالصرع لا يفيق منه وقد ذخر عقله بأفكار لامعه ، ولا يصاب بالصرع من كان في الصحة التي يتمتع بها محمد حتي قبل مماته بأسبوع واحد.... ثم يقول : وكان يعتبر من كانت تنتابه مثل هذه الحالات في الأزمنة الغابرة مجنوناً أو به مس من الجن ، ولو كان هناك مَن يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد.

(١) الرض: التكسير والتفتيت، يقال: ترضرض الشئ: تكسر وتفتت .
ويقال: رض الشئ: دقه جريشاً، ولم ينعم دقه، أو كسره، فهو مرضوض ورضيض. ينظر: الصحاح ١/ ٨٤٣، المعجم الوجيز ٢٦٧ مادة رضض.

(٢) أخرجه البخاري في كتابي التفسير والجهاد والسير، باب قوله تعالي: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين.....) حديث رقم ٢٨٣٢، ورقم ٤٥٩٢. صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٦/ ٥٣، ٨/ ١٠٨.

ويرفض المستشرق روم لاندو اتهام الرسول بالصرع فيقول :

ولا شك البتة من بطلان تلك الأكاذيب التي تزعم أن الآيات الموحاة إليه - يعني محمداً ﷺ - وليدة نوبات من الصرع ، كانت تنتابه بين آونة وأخري ، إذ ليس في وسع المصاب بتلك النوبات أن يتلقى فيها نسقاً من الكلام له ما للقرآن من العمق وانتظام التركيب.

ويقول المستشرق لوبون : قيل إن محمداً كان مصاباً بالصرع ، ولم أجد في تواريخ العرب ما يبيح القطع بهذا الرأي. (١)

ويقول المستشرق لوهمان : لو كان محمد يعاني منذ طفولته من مرض عضال حقاً لما تخلي عن هذه الذريعة أبداً ، بل من غير المعقول أن ينجز رجل مريض ما أنجزه محمد ، ولا سبيل إلي إنكار عدد من الحقائق ، فقد كان تاجراً موهوباً ، هادئ الطبع ، وأن قراراته عادة ما كانت تصدر عن غريزة سياسية ذكية متبصرة ، وأنه كان دليلاً نشطاً للقوافل ، وقائداً بعيد النظر للدولة ، ولمجتمع ديني نام علي حد سواء.

وهذه كلها تظهر بما لا يدع مجالاً للشك في أنه كان سليماً ومعافى (٢).

ويكفينا في الرد علي هذا الزعم الباطل ، ما ذهب إليه بعض المستشرقين من إنكار أن يكون الوحي نوبات صرع ، تنتاب الرسول ﷺ من وقت لآخر، وما أثبته هؤلاء من المعافاة الكاملة للنبي ﷺ .

والفضل ما شهدت به الأعداء ، كما يقولون، وكما يقال :

وإذا لم تر الهلال فسلم ... لأناس رأوه بالأبصار

❁ ولشيخ أشياخنا الزرقاني كلام عظيم القدر في الرد علي هذه الشبهة ، ما أحب أن يفوتني ذكره ، حيث يقول رحمه الله :

يقولون : إن محمداً كان عصبياً حاد المزاج ، وكان مريضاً بما يسمونه (الهستريا) ،

(١) مدخل الدراسات القرآنية صفحة ٤٢٦ وما بعدها.

(٢) المستشرقون والقرآن صفحة ٥٠ وما بعدها.

فالوحي الذي كان يزعمه ما هو إلا أعراض لتلك الحال التي أصيب بها.

والجواب : أن هذه فرية تدل علي جهلهم الفاضح بمحمد ﷺ ، فالمعروف عنه - بشهادة التاريخ الصحيح والأدلة القاطعة - أنه ﷺ كان وديعاً صبوراً ، حليماً ، بل كان عظيم الصبر، واسع الحلم ، فسيح الصدر، حتي إنه وسع الناس جميعاً ببسطه وخلقه ، وكان شجاعاً مقداماً سليم الجسم ، صحيح البدن ، حتي إنه صارع ركانة المشهور بشجاعته فصرعه ، وكان يثبت في الميدان حين يفر الشجعان ، ويفزع الخلق ويشتد الأمر، ويقول: (أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب) ويقول : (إليَّ عباد الله) (١) ، ولا يزال كذلك حتي ينقذ الموقف ويكسب المعركة ولو أفضنا في هذا الموضوع لطال بنا الكلام ، ولكن موضوعه كتب السيرة والشمائل المحمدية ، فارجع إليها أن شئت.

أما مرض (الهستريا) الذي يصمونه ﷺ كذباً فهو داء عصبي عضال، أكثر إصاباته في النساء ، ومن أعراضه شذوذ في الخلق ، وضيق في التنفس ، واضطراب في الهضم ، وقد يصل بصاحبه إلي شلل موضعي ثم إلي تشنج ، ثم إلي إغماء ، ثم إلي هذيان ، مصحوب بحركة واضطرابات في اليدين والرجلين ، وقفز من مكان إلي مكان ، وقد يزعم المصاب أنه يري أشباحاً تهدده ، وأعداء تحاربه ، أو أنه يسمع أصواتاً تخاطبه ، علي حين أنه لا وجود لشئ من ذلك كله في الحس والواقع.

فهل يتفق ذلك وما هو معروف عن النبي ﷺ من أنه كان أمة وحده في أخلاقه ، وثباته ، وحلمه ، وعقله ، ورباطة جأشه ، وسلامة جسمه ، وقوة بنائه ؟

ثم كيف يتفق ذلك الداء العضال الذي أعيا الأطباء ، وما انتدب له محمد ﷺ من

(١) قال ﷺ ذلك في غزوة أحد، حينما دارت رحى المعركة ضد الجيش الإسلامي وأشيع بين الناس أن رسول الله قد قتل، فتفرق جمع المسلمين، وأراد النبي ﷺ أن يعيد تنظيم الصفوف، فنادي بأعلى صوته: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب، وقال: إليَّ عباد الله، وكان ﷺ يدرك خطورة رفع صوته بهذا النداء، لأنه كان أقرب إلي صفوف المشركين من صفوف المسلمين وهذا إن دل علي شئ فإنما يدل علي شجاعته وإقدامه صلي الله عليه وسلم.

تكوين أمه شموس أبيَّه ، وتربيتها علي أسمي نواميس الهداية ، ودساتير الاجتماع ، وقوانين الأخلاق ، وقواعد النهضة والرقي ؟ !

أضف إلي ذلك أنه نجح في هذه المحاولة المعجزة إلي درجة جعلت تلك الأمة بعد قرن واحد من الزمان ، هي أمه الأمم ، وصاحبه العلم ، وربّة السيف والقلم.

فهل المريض المتهوس الذي لا يصلح لقيادة نفسه يتسنى له أن يقوم بهذه القيادة العالمية الفائقة ، ثم ينجح فيها هذا النجاح المعجز المدهش ؟

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم ؟ هـ [1]

(١) مناهل العرفان ١/ ٨١ وما بعدها.

﴿ المطلب الثالث ﴾

الشبهة الثالثة

قولهم : إن القرآن الكريم من عند محمد ومن صنعه ، ابتكر معانية ، وصاغ أسلوبه ، وليس وحياً أوحاه الله تعالي إليه.

ونرد علي هذا فنقول :

إن هذا أيضاً منهم زعم باطل ، وافتراء واضح ، ويمكن الرد عليه بالوقوف علي الحقائق الآتية ، وذلك من وجوه ، منها :

أولاً : واقع النبي ﷺ يرد هذا الزعم الباطل.

فالحق تبارك وتعالي يقول في القرآن : (وما كان هذا القرآن أن يفتري من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) [1].

ويقول سبحانه : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين) [2].

و(لو) حرف امتناع لامتناع ، كما يقول علماء اللغة العربية ، فامتنع الأخذ باليمين وقطع الوتين ، لامتناع التقول من النبي ﷺ ، فلو تقول لفُعِلَ به ذلك ، فلما لم يُفعل به ذلك ، دل علي أنه لم يتقول.

وواقع النبي ﷺ أنه كان أميّاً ، لا يقرأ ولا يكتب ، فكيف أتي بهذا الكتاب العظيم ، الذي أعجز الناس – وما زال – بفصاحته وبلاغته ؟

يقول العلامة محمد عبد الله دراز رحمه الله في بيان مصدر القرآن.

لقد علم الناس أجمعون ، علماً لا يخالطه شك ، أن هذا الكتاب العزيز جاء علي لسان رجل عربي أميّ ، ولد بمكة في القرن السادس الميلادي، اسمه محمد بن عبد الله

(١) الآية ٣٧ من سورة يونس.
(٢) الآيات ٤٤:٤٧ من سورة الحاقة.

بن عبد المطلب ، صلوات الله وسلامه عليه وعلي آله ، هذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وملحد ، لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يدانيها شهادته لكتاب غيره، ولا لحادث غيره ظهر علي وجه الأرض.

أما بعد : فمن أين جاء به محمد بن عبد الله ﷺ ؟ أمن عند نفسه ومن وحي ضميره ، أم من عند معلم ؟ ومن هو ذلك المعلم ؟

نقرأ في هذا الكتاب ذاته أنه ليس من عمل صاحبه ، وإنما هو قول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين[1] .

ذلكم هو جبريل عليه السلام ، تلقاه من لدن حكيم عليم ، ثم نزله بلسان عربي مبين ، علي قلب محمد ﷺ [2]، فتلقنه محمد منه كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصاً من النصوص ، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا :

١ - الوعي والحفظ. ٢ - الحكاية والتبليغ.

٣- البيان والتفسير. ٤ - التطبيق والتنفيذ.

أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه ، فما هو منهما بسبيل ، وليس له من أمرهما شئ ، إن هو إلا وحي يوحي.

وهكذا سَمَّاه القرآن حيث يقول : (وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحي إليَّ من ربي). [3]

ويقول : (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحي إليَّ)[4].

وأمثال هذه النصوص كثير في شأن إيحاء المعاني.

(١) إشارة إلي الآيات ١٩:٢١ من سورة التكوير.

(٢) إشارة إلي الآيات ١٩٢:١٩٥ من سورة الشعراء.

(٣) أول الآية ٢٠٣ من سورة الأعراف.

(٤) من الآية ١٥ من سورة يونس.

ثم يقول في شأن الإيحاء اللفظي :(إنا أنزلناه قرآنا عربياً)[1]، (سنقرئك فلا تنسي)[2]، وذكر غير ذلك من الآيات... ثم قال :

القرآن إذاً صريح في أنه لا صنعة فيه لمحمد ﷺ ، ولا لأحد من الخلق ، وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه.

والعجب أن يبقي بعض الناس في حاجة إلي الاستدلال علي الشطر الأول من هذه المسألة ، وهو أنه ليس من عند محمد ﷺ أ.هـ [3] .

ثانياً : نسبة القرآن إلي الله تعالي ترد هذا الزعم أيضاً.

فلو كان القرآن من صنع محمد ومن عنده ، فلماذا لم ينسبه إلي نفسه ، لماذا نسبه إلي غيره .

فقل لي بالله عليك : مَن يكتب كتاباً أو بحثاً بعظمة القرآن الكريم ، أينسبه إلي غيره أم ينسبه إلي نفسه ؟ !.

ولا يُقال إنه نسبه إلي الله تعالي ليكسبه قداسة أكبر، فإن هذا يرده أنه ﷺ صدر عنه ما نسبه إلي نفسه ، وهو الحديث النبوي ، فلو أن المسألة قضية قداسة أكبر، لنسب ﷺ الحديث النبوي أيضاً إلي الله تعالي ، كما نسب إليه الحديث القدسي.

لكن النبي ﷺ وهو الصادق الأمين ، ما كان ليذر الكذب علي الناس ويكذب علي الله عز وجل ، كما قال عنه هرقل ، زعيم الروم .

يقول الدكتور عبد الله دراز بعد كلامه السابق :

في الحق أن هذه القضية لو وجدت قاضياً يقضي بالعدل لاكتفي بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها علي نفسه ، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر، من العقل أو النقل ، ذلك أنها ليست من جنس (الدعاوى) فتحتاج إلي بينه ، وإنما هي من نوع

(١) أول الآية ٢ من سورة يوسف.

(٢) الآية ٦ من سورة الأعلى.

(٣) النبأ العظيم صفحة ١٩، ٢٠.

(الإقرار) الذي يُؤخذ به صاحبه ، ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه.

وأيّ مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة ، نقول : أي مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره ، وينسلخ منها انسلاخاً ؟ ، علي حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها ، فيزداد بها رفعة وفخامة شأن ، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحداً يعارضه ويزعمها لنفسه.

الذي نعرفه أن كثيراً من الأدباء يسطون علي آثار غيرهم ، فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله وغلت قيمته وأمنت تهمته ، حتي أن منهم من ينبش قبور الموتى ويلبس من أكفانهم ، ويخرج علي قومه في زينة من تلك الأثواب المستعارة.

أما أن أحداً ينسب لغيره أنفس آثار عقله ، وأغلي ما تجود به قريحته ، فهذا ما لم يلده الدهر بعد.

ولو أننا افترضناه افتراضاً لما عرفنا له تعليلاً معقولاً ولا شبه معقول ، اللهم إلا شيئاً واحداً قد يحيك في صدر الجاهل ، وهو أن يكون هذا الزعيم قد رأي أن في نسبته القرآن إلي الوحي الإلهي ما يعينه علي استصلاح الناس باستيجاب طاعته عليهم ، ونفاذ أمره فيهم ، لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبه إلي نفسه .

وهذا قياس فاسد في ذاته ، فاسد في أساسه .

أما أنه فاسد في ذاته ، فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلي نفسه والكلام المنسوب إلي الله تعالي ، فلم تكن نسبته ما نسبه إلي نفسه بناقصة من لزوم طاعته شيئاً ، ولا نسبة ما نسبه إلي ربه بزائدة فيها شيئاً ، بل استوجب علي الناس طاعته فيهما علي السواء ، فكانت حرمتهما في النفوس علي سواء ، وكانت طاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصية الله ، فهلا جعل كل أقواله من كلام الله تعالي لو كان الأمر كما يهجس به ذلك الوهم .

وأما فساد هذا القياس من أساسه ، فلأنه مبنيٌّ علي افتراض باطل ، وهو تجويز أن

يكون هذا الزعيم من أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلي غاية إصلاحية أن يعبروا إليها علي قنطرة من الكذب والتمويه ، وذلك أمرٌ يأباه علينا الواقع التاريخي كل الإباء ، فإن مَن تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته ، وعباراته وإشاراته ، في رضاه وغضبه ، في خلوته وجلوته ، لا شك في أنه كان أبعد الناس عن المداجاة والمواربة وأن سره وعلانيته كانا سواءً في دقة الصدق وصرامة الحق ، في جليل الشئون وحقيرها ، وأن ذلك كان أخص شمائله ، وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها ، كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه إلي يومنا هذا . (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) أ. هـ [1] .

ثالثاً : لو كان القرآن من صنع محمد لأتي بما يوافق هوى قومه ، وهو الحريص علي إيمانهم.

لقد كان النبي ﷺ أحرص الناس علي إيمان قومه ، حتي كاد أن يهلك نفسه بسبب ذلك ، فخاطبه ربه عز وجل بقوله :(فلعلك باخع نفسك علي آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) [2]. وقوله : (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين)[3] . والمعني: لعلك أيها الرسول الكريم قاتل نفسك هماً وغماً وحزناً بسبب عدم إيمان قومك .

فإذا كان القرآن من صنع محمد لماذا لم يأت بما يوافق هوي المشركين، ويدفعهم إلي الإيمان.

لكن واقع القرآن الكريم وتاريخ النبي ﷺ مع قومه يدل علي عكس ذلك ، وهذا هو القرآن يخاطب رسول الله ﷺ بقوله : (فلا تطع المكذبين. ودوا لو تدهن فيذهبون)[4].

(١) النبأ العظيم صفحة ٢٠، ٢١.
(٢) الآية ٦ من سورة الكهف.
(٣) الآية ٣ من سورة الشعراء.
(٤) الآيتان ٨، ٩ من سورة القلم.

والمعني : تمنى المشركون أن تلاينهم لكي يتظاهروا بالملاينة معك • وحينما جاء رهط من قريش إلي رسول الله ﷺ وقالوا له : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك ، فقال رسول الله ﷺ : (معاذ الله أن أشرك به غيره) ، فأنزل الله تعالي :

[قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ. لا أعبد ما تعبدون • وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ . وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ] (١) .

وحينما طلب منه المشركون أن يغير هذا القرآن ، رد ﷺ بما يفيد أن ذلك ليس في استطاعته ، وفي ذلك يقول تعالي : [وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ] (٢) .

رابعاً : لو كان القرآن من صنع محمد ﷺ لأتي به وقت الحاجة إليه • فلقد تعرض ﷺ لمواقف كثيرة ، كان فيها أشد الناس حاجة إلي الوحي ،

لكن القرآن الكريم والوحي لم يسعفه(٣)، مما أوقع النبي ﷺ في الحرج الشديد ، ولو كان القرآن – كما يقولون – من عند محمد لأوجده في وقت الاحتياج إليه ، وأنقذ نفسه من الوقوع في الحرج الشديد. وأذكر من ذلك – علي سبيل المثال لا الحصر – ما يأتي:

١ – حادثة الإفك.

حيث اتهم أهل الإفك السيدة عائشة رضي الله عنها ، بما رموها به من الكذب

(١) سورة الكافرون بتمامها، وينظر: أسباب النزول للواحدي صفحة ٢٥٨.

(٢) الآيتان ١٥ :١٦ من سورة يونس.

(٣) أسْعَفَه بحاجته: قضاها له، والمُسَاعَفة : المُوَاتاة والمساعدة • الصحاح ٢/ ١٠٥٢ مادة سعف،

والبهتان ، وعائشة هي زوجة النبي ﷺ ، بل وأحب زوجاته إلي قلبه ﷺ ، وهي بنت أبي بكر الصديق ، صاحب النبي ﷺ ، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفته علي الصلاة.

ولقد كان الرمي بالإفك – بكل المقاييس البشرية – ضربة من ضربات الأعداء القاسية ، التي وجِّهَت في أصلها إلي العقيدة الإسلامية ، وإلي الطعن في النبوة والرسالة ، وإلي الإساءة إلي المسلمين كافة.

حيث إن الهدف من تلك الضربة لم يكن مجرد الطعن في عرض محمد ﷺ وحرمه المصون ، وصفوان رضي الله عنه ، وإنما كان هدفها الطعن في الدين ، وفي جميع أفراد الأمة ، ممثلة في شخص نبيها ومطهرها ومربيها وقائدها محمد ﷺ .

ولذلك قال اللعين عبد الله بن أبيّ : (انظروا إلي زوجة نبيكم ، باتت عند رجل ثم جاء يقودها ، والله ما نجت منه ولا نجا منها).

لم يقل اللعين : انظروا إلي عائشة ... أو إلي امرأة محمد... أو إلي بنت الصديق ... أو ما شابه ذلك ، لكنه يقول : زوجة نبيكم...

فكان الغرض إذاً هو الطعن في النبوة ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً•

واقتضت حكمة الله تعالي أن يتأخر الوحي ببيان الحقيقة ، لأمر يعلمه الله تبارك وتعالي ويريده ، وتستمر المعركة التي استخدم الأعداء فيها سلاح الكلمة ، وخبث المكر، ودهاء النفاق ، حتي أرجفت المدينة شهراً كاملاً وزلزلت الجماعة المسلمة – وعلي رأسهم النبي ﷺ – زلزالاً شديداً.

ووصل الحال برسول الله ﷺ – وهو بشر وزوج – أن يقول لزوجته :

(إنه قد بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالي ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله تعالي وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب ، تاب الله عليه).

ويصل الأمر برسول الله ﷺ أن يستشير أصحابه في فراق زوجه عائشة فيقول أسامة

بن زيد : يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً ، ويقول علي بن أبي طالب : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير.... [1].

وتعلم السيدة عائشة أن النبي ﷺ لم يقض في تهمتها ، وربه عز وجل لم يخبره بشئ بعد.

۞ ثم نزل الوحي بالقرآن الكريم ، وفيه براءة الصديقة الطاهرة بنت الصديق رضي الله عنهما ، ولكن بعد شهر كامل أو يزيد ، تحرج فيه الرسول ﷺ وآل بيته ، كما تحرج فيه الصديق وآل بيته ، وصفوان وآل بيته ، بل تحرج الصحابة جميعاً ، حتي بلغت القلوب الحناجر ، وكادت النفوس تزهق من شدة الألم .

فلو كان القرآن من صنع محمد ﷺ ، فلماذا لم يأت بآيات الإفك وبراءة السيدة عائشة فور إشاعة الخبر، لماذا تأخر كل هذه المدة ، ولصالح مَن، وما الذي كان يمنعه ﷺ أن يأتي بالآيات ويقطع ألسنة المتقولين الكاذبين.

لكن الحقيقة أنه لا يملك من أمر الوحي شيئاً ، إلا التلقي من جبريل عليه السلام ، ثم تبليغ هذا الوحي إلي الناس ، ثم البيان إذا دعت إلي ذلك ضرورة ، إذاً فالقرآن ليس من عند محمد ﷺ ، لكنه أوحي إليه.

٢- سورة الكهف ٠

وموقف آخر يؤكد أن القرآن ليس من عند الله محمد ﷺ ، وهو سورة الكهف. فقد ذكر المفسرون في سبب نزول سورة الكهف أن قريشاً بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيْط إلي أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ما ليس عندنا من

(١) راجع خبر الإفك في صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة النور، حديث رقم٤٧٥٠، وفي كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، حديث رقم ٢٦٦١، وراجعه أيضاً في صحيح مسلم، في كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، حديث رقم ٢٧٧٠، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٥/ ٣١٩، ٨/ ٣٠٦ وما بعدها، صحيح مسلم بشرح النووي ٩/ ١١٥ وما بعدها..

علم الأنبياء.

فخرجا حتي قدما المدنية ، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله ، وقالا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، فقالت لهم أحبار يهود.

سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم.

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان من أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف ، بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هو ؟

فإن أخبركم بذلك ، فإنه نبي فاتبعوه ، وإن هو لم يخبركم فهو رجل متقول ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة حتي قدما مكة علي قريش ، فقالا يا معشر قريش : قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله ، عن أمور، فأخبروهم بها ، فجاءوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد أخبرنا ٠٠٠ ، فسألوه عما أمروهم به ، فقال لهم رسول الله ﷺ : (أخبركم غداً بما سألتم عنه ، ولم يستثن). [1] فانصرفوا عنه ٠

فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبريل عليه السلام ، حتي أرجف أهل مكة[2] وقالوا: وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشئ مما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة.

ثم جاءه جبريل عليه السلام ، بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه علي حزنه

(١) أي لم يقل: (إن شاء الله)، ويشير إليه قوله تعالي في سورة الكهف: (ولا تقولن لشئ إن فاعل ذلك غداً. إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت....) ٠

(٢) أي خاضوا في الحديث عن هذا الأمر.

عليهم[1]، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف[2]، وقول الله عز وجل (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً).[3]

فلو كان القرآن من صنع محمد ﷺ كما يزعمون لماذا لم يأت بسورة الكهف عندما تحداه كفار قريش بهذا الامتحان.

وتنبه: إن الأسئلة كانت في معرض التحدي، إن أجاب فهو نبي مرسل وإن لم يجب فهو رجل متقول...

ولعل قول الرسول ﷺ للممتحنين: (أخبركم غداً بما سألتم عنه)، لثقته في الله تعالى، وفي أن الوحي سيسعفه في الإجابة عما سألوا عنه.

لكن لأمر أراده الله تعالى تأخر الوحي خمس عشرة ليلة، حتى خاض أهل مكة في الحديث، وأحزن النبي ﷺ ذلك، وشق عليه مكث الوحي.

فلو أن القرآن من صنع محمد، وهو الذي صاغ أسلوبه، وابتكر معاينه، كما يقولون، فما الذي منعه أن يجيب على أسئلتهم فور طرحها، ويثبت لهم أنه نبي مرسل، يجب عليهم إتباعه..

لكن محمداً ﷺ – كما قلنا غير مرة – لا يملك من أمر نزول الوحي شيئاً، وأمين الوحي – جبريل عليه السلام – لا ينزل إلا بأمر الله تعالى، على حد قوله سبحانه (وما

(١) يعني في قوله تعالى في مطلع سورة الكهف: (فلعلك باخع نفسك على آثرهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) الآية ٦، أي مهلك نفسك لعدم إيمانهم.

(٢) يعني قصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، في سورة الكهف.

(٣) الآية ٨٥ من سورة الإسراء، والحديث أخرجه الطبري في جامع البيان ١٥/ ١٩١ وما بعدها، بسنده عن ابن إسحاق عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأورده السيوطي في الدار المنثور ٥/ ٣٥٧، وفي أسباب النزول ١٤٤، وذكره الواحدي – مختصراً – في أسباب النزول /١٦٦، عند قوله تعالى (ويسألونك عن الروح... الآية)، وذكره ابن هشام في السيرة النبوية ١/ ٢٢٥ وما بعدها عن ابن إسحاق، وهذه الرواية وإن كانت ضعفية السند، إلا أنه توجد قرائن كثيرة ترجح حدوثها، والله أعلم.

نتنزل إلا بأمر ربك....)[1].

خامساً: لو كان القرآن من صنع محمد ﷺ ما أوقع نفسه عرضة لانتقاد الوحي.

فلقد جاء القرآن الكريم منتقداً رسول الله ﷺ في كثير من آياته، ولو كان القرآن من صنع محمد، ما انتقد نفسه فيه بأشد عبارات الانتقاد، وما عاتب نفسه فيه، وهل يمكن لمؤلِف أو كاتب أو باحث أن ينتقد نفسه في مؤلَفه أو كتابه أو بحثه.

لكن القرآن العظيم كثيراً ما كان ينتقد رسول الله ﷺ في تصرفاته، وربما وقع ذلك بعبارات قاسية، وبأسلوب شديد اللهجة.

وأذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر أيضاً المواقف الآتية:

١- قبوله ﷺ الفداء من أسرى بدر.

فبعد انتهاء معركة بدر الكبرى، ووقوع الأسرى من المشركين في قبضة النبي ﷺ، استشار النبي الكريم أصحابه في هؤلاء الأسرى، فأشار الصديق رضي الله عنه على النبي ﷺ بقبول الفداء منهم، وأشار عمر رضي الله عنه بقتلهم.

ومال النبي ﷺ إلى رأي أبي بكر، وقبل منهم الفداء، واختار العفو عن أسرى بدر، لكن الوحي جاء بغير ذلك، حيث نزل القرآن معاتباً رسول الله ﷺ في ذلك عتاباً شديد اللهجة، حيث قال رب العزة سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله ﷺ: (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم)[2].

يقول عمر رضي الله عنه: فلما كان من الغد جئت إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان، فقلت: يا رسول الله أخبرني من أي شئ تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت، فقال رسول الله ﷺ: أبكي للذي عرض لأصحابي من أخذهم الفداء، ولقد عرض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة،

(١) أول الآية ٦٣ من سورة مريم، ومعناها: يقول جبريل لمحمد ﷺ: إنا لا ننزل عليك بالقرآن إلا بإذن الله.

(٢) الآيتان ٦٧: ٦٨ من سورة الأنفال.

لشجرة قريبة من رسول الله ﷺ ، فأنزل الله الآيات[1].

٢- إعراضه ﷺ عن الرجل الأعمى.

فقد كان ﷺ يخاطب بعض عظماء قريش ، وقد طمع النبي ﷺ في إسلامه وبينما هو يخاطبه ويناجيه إذا أقبل عبد الله بن أم مكتوم – وهو الرجل الأعمى – وكان ممن أسلم قديماً ، فجعل يسأل رسول الله ﷺ ويلح عليه ، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ، ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل القرشي ، طمعاً ورغبة في هدايته ، وعبس[2] في وجه ابن أم مكتوم

وأعرض عنه ، وأقبل علي الآخر[3].

فنزل الوحي معاتباً رسول الله ﷺ عتاباً شديداً قاسياً ، حيث قال سبحانه وتعالي مخاطباً رسوله ﷺ : (عبس وتولى. أن جاءه الأعمى. وما يدريك لعله يزكى. أو يذكر فتنفعه الذكرى. أما مَن استغنى. فأنت له تصدى. وما عليك ألا يزكى. وأما من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلهى. كلا إنها تذكرة)[4].

فكان ﷺ إذا التقي بابن أم مكتوم بعد ذلك يقول له : (أهلاً بمَن عاتبني فيه ربي).

فلو كان القرآن من صنع محمد أكان يعاتب نفسه هذا العتاب القاسي،أكان يسمي انشغاله بدعوة العظماء إلي الإسلام بالتلهي ، كما قال القرآن (فأنت عنه تلهي) ، أم أنه الوحي الذي لا دخل للنبي ﷺ في صنعه وابتكاره.

٣- إذنه ﷺ للمتخلفين يوم تبوك.

فلقد استأذن جماعة في التخلف عن غزوة تبوك ، وأبدوا أعذاراً لتخلفهم وكان منهم مَن انتحل هذه الأعذار، فقبل النبي ﷺ عذرهم ، وأذن لهم في التخلف عن

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٠ / ٤٤.
(٢) عبس أي كلح وجهه وقطبه وأعرض عنه كارهاً.
(٣) ذكره المفسرون عند تفسيرهم لأول سورة عبس.
(٤) الآيات ١: ١١ من سورة عبس.

الخروج للغزو.

فنزل القرآن الكريم علي رسول الله ﷺ ، معاتباً إياه علي قبول العذر من هؤلاء ، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالي مخاطباً رسوله ﷺ : (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتي يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين)[1].

فلو كان القرآن من صنع محمد أكان يعاتب نفسه علي قبول عذر هؤلاء

٤- صلاته ﷺ علي المنافقين.

لما توفي عبد الله بن أبيّ بن سلول – رأس المنافقين – صلي عليه النبي الكريم ﷺ ، رافضاً دعوة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلي عدم الصلاة عليه ، لأنه منافق ، فنزل القرآن الكريم آمراً رسول الله ﷺ بقوله تعالي: [وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ] [2].

ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال:

لما توفي عبد الله بن أبيّ ، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ : (إنما خيرني الله ، فقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة) ، وسأزيده عن السبعين ٠ فأنزل الله سبحانه :

{ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره} .[3]

(١) الآية ٤٣ من سورة التوبة.
(٢) الآية ٨٤ من سورة التوبة.
(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب التفسير، من سورة التوبة، باب استغفر لهم أو لا تستغفر لهم...، حديث رقم ٤٦٧٠، وأخرجه مسلم في كتاب وباب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم ٢٧٧٤، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٨/ ١٨٤، صحيح مسلم بشرح النووي ٩/ ١٣٤.

فلو كان القرآن من صنع محمد كما يزعمون ، أكان يعيب علي نفسه هذه الصلاة ، ويأمر نفسه بعدم العود إليها مرة أخري ، وهو الذي اختارها !

أم أن ذلك من توجيهات الوحي الإلهي ؟!

سادساً : لو كان القرآن من صنع محمد ﷺ ، ما عجز غيره من البشر عن الإتيان بمثله .

فمحمد ﷺ بشر – كسائر البشر – يتحدث العربية ، لكنه كان أميّاً اختاره الله للرسالة ، وأوحي إليه هذا القرآن ، وأمره بتبليغه إلي الناس.

ولقد تحدي محمد ﷺ أعداءه أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة مثله ، أو بسورة من مثله ، ولقد اكتفي القرآن الكريم من نقاده وأعدائه – في معرض التحدي والإعجاز – أن يأتوا بسورة من مثل أقصر سورة قرآنية ، أو ما يماثلها من الآيات ، أي سورة الكوثر، أو ثلاث آيات قصار، من آيات القرآن المتكاثرة ، فقال تعالي : [وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىَ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (١).

وزاد القرآن علي ذلك إثبات العجز لنقاد القرآن وأعدائه في كل زمان ومكان ، حيث قال سبحانه : [قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَىَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً] (٢).

فلو كان القرآن من صنع محمد – كما يزعم الجاهلون – فما الذي منع غيره من أرباب الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

هذا الغير الذي يتميز ببراعته في علوم العربية ، فليس أميّاً كالنبي ﷺ الأمي ، الذي لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يجلس إلي معلم من البشر.

لكن التاريخ يسجل شهادة نقاد القرآن وقت نزوله ، بأنه كلام الله تعالي ، وما هو

(١) الآية ٢٣ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٨٨ من سورة الإسراء.

بقول بشر، والفضل ما شهدت به الأعداء ، كما يقال .

فهذا الوليد بن المغيرة يقول عن القرآن : (إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلي عليه وما هو بقول بشر، وإن قوله لمن كلام الله)(١).

أليس هذا قول المشركين من العرب : (وإن قوله لمن كلام الله) ؟

فمال هؤلاء النقاد للقرآن لا يكادون يفقهون حديثاً ، وكما يقولون :

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار .

سابعاً : لو كان القرآن من صنع محمد ﷺ لتضمن بعض التصريحات المتناقضة .

فلقد نزل القرآن الكريم علي محمد رسول الله ﷺ منجماً مفرقاً ، حسب الوقائع والأحداث ، في ثلاث وعشرين سنة ، مشتملاً علي علوم ومعارف وأشياء كثيرة ، مصداقاً لقوله تعالي : (ما فرطنا في الكتاب من شئ)(٢)، ولم يتنزل القرآن الكريم بهذا الترتيب المصحفي ، كما هو متفق عليه بين العلماء.

فلو كان القرآن من صنع محمد ﷺ لاشتمل علي تصريحات متناقضة وأشياء متعارضة ، لأنه يستحيل علي واحد من البشر أن يكتب كتاباً في مدة متطاولة – ثلاث وعشرين سنة – ، وفيه ما فيه من غزارة العلم وضخامة الإنتاج ، إلا ويتضمن بعض التصريحات المتناقضة أو المتعارضة ، وهذا بالطبع غير واقع في القرآن الكريم ، مما يدل دلالة قطعية علي أن القرآن – بما فيه من حقائق ومعلومات – لا يمكن أن يكون من صنع بشر، وصدق الله العظيم القائل :[أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً] (٣) .

وبالتالي لا يمكن أن يكون هذا القرآن العظيم من صنع محمد ﷺ .

(١) الدر المنثور ٨/ ٣٣٠ وما بعدها، في تفسير أوائل سورة المدثر .

(٢) من الآية ٣٨ من سورة الأنعام.

(٣) من الآية ٨٢ من سورة النساء.

﴿ المطلب الرابع ﴾

ﷺ الشبهة الرابعة ﷺ

قولهم : إن الوحي الإسلامي أثر من آثار الوحي النفسي والكشف الوجداني ، عبَّر عنه محمد ﷺ بأسلوبه وبيانه ، فهو نتاج للاستنباط العقلي والإدراك الوجداني .

فقد زعموا أنه كان لمحمد ﷺ من حدة الذكاء ، ونفاذ البصيرة ، وقوة الفراسة ، وشدة الفطنة ، وصفاء النفس ، وصدق التأمل ، ما يجعله يدرك مقاييس الخير والشر ، والحق والباطل بالإلهام ، ويتعرف علي خفايا الأمور بالكشف والوحي النفسي.

ولا يخرج القرآن عن أن يكون أثراً للاستنباط العقلي ، والإدراك الوجداني ، عبر عنه محمد بأسلوبه وبيانه. (١)

ونقول للرد علي هذه الشبهة :

إن هذا أيضاً منهم كذب وافتراء ، وزعم باطل ، مردود علي أصحابه.

ومن حقنا أن نسأل هؤلاء : أي شئ في القرآن يعتمد علي الذكاء والبصيرة والفراسة والفطنة والاستنباط والشعور ؟

فالجانب الإخباري – وهو جانب كبير من القرآن الكريم – لا يُمَارِي عاقل في أنه لا يعتمد إلا علي التلقي والتعليم.

فلقد تعرض القرآن لنشأة الكون الأولي ، ولأنباء الأمم السابقة والقرون البائدة ، والأنبياء والجماعات الماضية ، والأحداث التاريخية المنصرمة بوقائعها الدقيقة الصحيحة ، المطابقة للواقع ، الموافقة للتاريخ البشري وذلك كله بما لا يدع مجالاً لإعمال الفكر، واستنباط العقل ، ودقة الفراسة ، وحدة الذكاء.

ولا يشك عاقل – حتي من نقاد القرآن أنفسهم – في أن محمداً ﷺ لم يعاصر تلك الأحداث أثناء وقوعها في قرونها المختلفة ، حتي يشهد وقائعها وينقل أخبارها بتلك

(١) مباحث في علوم القرآن للقطان صفحة ٤٣.

الدقة المتناهية ، ولم يكن ﷺ حاضراً لأحداث الأمم والأنبياء السابقين ، ولم يكن يحيا في القرون الخالية ، كما لم يتوارث ﷺ كتب السابقين ، ليدرس دقائقها ويروي أخبارها.

وهذا ما ركز عليه القرآن في جانب الأخبار والقصص ، إذ كثيراً ما كان القرآن يؤكد علي حقيقة عدم حضور النبي ﷺ لتلك الأحداث ، ليثبت من خلال تلك الحقيقة أن هذا القرآن من وحي الله سبحانه إلي رسوله ﷺ .

فنقرأ – مثلاً – في القرآن الكريم قوله تعالي :

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) (١) .

وقوله تعالي: [تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا.....] (٢).

وقوله تعالي : [نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ] (٣).

وقوله تعالي : [ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ] (٤).

وقوله تعالي : [وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ. وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ(٥) تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ] (٦).

(١) الآية ٤٤ من سورة آل عمران.
(٢) أول الآية ٤٩ من سورة هود.
(٣) الآية ٣ من سورة يوسف.
(٤) الآية ١٠٢ من سورة يوسف.
(٥) ثاوياً في أهل مدين أي مقيماً معهم .
(٦) الآيات ٤٤:٤٦ من سورة القصص.

۞ ومن هذه الأنباء ما هو دقيق ، يتناول الأرقام الحسابية التي لا يعلمها إلا الدارس البصير، والمحقق الدقيق .

ومن ذلك أيضاً علي سبيل المثال لا الحصر: قوله تعالي في قصة نوح عليه السلام : [وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ] (١).

وهذا موافق تماماً لما جاء في سفر التكوين من التوراة ، حتي بعد تحريفها.

وفي قصة أصحاب الكهف يقول سبحانه وتعالي في تحديد المدة التي قضاها أهل الكهف في كهفهم : [وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً] (٢).

وفي هذه الآية يرد سؤال مؤداه : لم قال ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً،

ولم يقل : ثلاث مائة سنين وتسع ، ولو قال الثانية لكان أوجز في الكلام ؟ والجواب علي ذلك يتلخص في أن القرآن الكريم راعي حساب أهل الكتاب الذين أرسلوا بهذه المسائل إلي النبي ﷺ ، كما راعي حساب كفار قريش ، الذين حملوا هذه الأسئلة من اليهود ، ليختبروا بها صدق النبي ﷺ .

حيث كان أهل الكتاب يحسبون باعتبار السنة الشمسية ، وكان العرب يحسبون باعتبار السنة القمرية.

والسنة الشمسية تزيد علي السنة القمرية بمقدار عشرة أيام ، واحدي وعشرين ساعة تقريباً ، فتكون المدة التي قضاها أهل الكهف في كهفهم ثلاث مائة سنين علي الحساب الشمسي ، الموافق لأهل الكتاب.

لكنها – أعني المدة – علي الحساب القمري ثلاث مائة سنين وتسع سنين وثلاث وسبعين يوما تقريباً ، وهو الموافق لحساب أهل مكة.

فجمع الله تعالي بين الحسابين فقال سبحانه (ثلاث مائه سنين وازدادوا تسعاً)،

(١) الآية ١٤ من سورة العنكبوت.

(٢) الآية ٢٥ من سورة الكهف.

ولما كان الزائد عن التسع سنين لم يبلغ نصف – ولا حتي ربع –سنه ، لم يعتبر في العد لقلته ، والله تعالي أعلم بأسرار كتابه.

والشاهد هنا : مَن أعلم النبي الكريم ﷺ بهذه الأرقام الدقيقة ، وهذا الحساب الفلكي الدقيق ، من أين أتي محمد ﷺ بهذه الدقائق الصحيحة ، لو لم يكن يوحي إليه ، وهو الرجل الأمي ، الذي عاش في أمة أمية ، لا تقرأ ولا تحسب ؟ إن هو إلا وحي يوحي.

ولقد كان أهل الجاهلية الأولي – وقت نزول القرآن – أذكي من ملاحدة الجاهلية المعاصرة ، فإن أولئك لم يقولوا إن محمداً استقي هذه الأخبار من وحي نفسه كما يقول هؤلاء ، بل قالوا إنه درسها وأمليت عليه ، وقد سجل القرآن الكريم عنهم ذلك ، في قوله تعالي : [وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً] (١).

ولم يتلق رسول الله ﷺ درساً علي يد معلم قط ، كما سيأتي بيانه .

فمن أين جاءته هذه الأنباء فجأة ، وبعد أن بلغ سن الأربعين ؟

هذا في الجانب الإخباري.

۞ أما في سائر الجوانب التي تضمنها القرآن الكريم ، فإنه قد تناول كثيراً من الأمور الغيبية التفصيلية ، ومنها غيب الماضي وغيب الحاضر وغيب المستقبل ، كالحديث عن بدء الخلق ونهايته ، والجنة ونعيمها ، والنار وعذابها ، والملائكة ، والجن ، وكيد المنافقين وأعداء الدين ، والإخبار عما هو آتٍ ، كانتصار الروم علي الفرس، وغير ذلك من الأمور الغيبية.

وهذه معلومات لا مجال فيها أبداً لذكاء العقل ، وقوة الفراسة ، ونفاذ البصيرة ، وصفاء النفس..

أضف إلي ذلك كله أن القرآن الكريم قد حكي عن رسول الله ﷺ إتباعه للوحي في

(١) الآية ٥ من سورة الفرقان.

غير موضع ، كقوله تعالى : [وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] (١) .

كما حكي القرآن عن رسول الله ﷺ أنه بشر لا يعلم الغيب ، ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ، قال تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلي...)(٢)، وقال تعالى: [قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضراً إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] (٣).

وإذا كان النبي الكريم ﷺ لم يدرك حقيقة ما وقع بين خصمين شاهدين أمامه ، ليقضي بينهما وهو يسمع أقوالهما .... فمن باب أولي لا سبيل له إلي إدراك ما فات وما هو آت. (٤)

أخرج الشيخان في صحيحيهما عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (إنكم تختصمون إليَّ . ولعل بعضكم أن يكون ألحن(٥) بحجته من بعض. فأقضي له على نحو مما أسمع منه. فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه. فإنما أقطع له به قطعة من النار)(٦).

وفي رواية للإمام مسلم : عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته. فخرج إليهم . فقال (إنما أنا بشر. وإنه يأتيني الخصم ، فلعل

(١) الآية ٢٠٣ من سورة الأعراف.

(٢) أول الآية ١١٠ – والأخيرة – من سورة الكهف.

(٣) الآية ١٨٨ من سورة الأعراف.

(٤) مباحث في علوم القرآن للقطان، صفحة ٤٣ وما بعدها بتصرف.

(٥) ألحن: بالحاء المهملة، معناه: أبلغ وأعلم بالحجة.

(٦) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الشهادات، باب قال النبي ﷺ: لعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، حديث رقم ٢٦٨٠، وأخرجه مسلم – واللفظ له – في كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة برقم ١٧١٣ .
صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٥/ ٣٤٠، صحيح مسلم بشرح النووي ٦/ ٢٤٥.

بعضهم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق ، فأقضي له. فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من النار، فليحملها أو يذرها)(١).

وقوله ﷺ (إنما إنا بشر) معناه التنبيه علي حالة البشرية ، وأن البشر لا يعلمون من الغيب وبواطن الأمور شيئاً ، إلا أن يطلعهم الله تعالي علي شئ من ذلك (٢).

يقول العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله :

في بيان أن القرآن لا يمكن أن يكون إيحاء ذاتياً من نفس محمد ﷺ : الأمر أمامنا أوضح من أن يحتاج إلي سماع هذا الاعتراف القولي منه ﷺ ، أو يتوقف علي دراسة تلك الناحية الخلقية من تاريخه.

أليس يكفي للحكم ببراءة الإنسان من عمل من الأعمال أن يقوم من طبيعته شاهد بعجزه الهادي عن إنتاج ذلك العمل ؟

فلينظر العاقل : هل كان هذا النبي الأميّ صلوات الله عليه أهلاً بمقتضي وسائله العلمية لأن تجيش نفسه بتلك المعاني القرآنية ؟

سيقول الجهلاء من الملحدين : نعم . فقد كان له من ذكائه الفطري وبصيرته النافذة ، ما يؤهله لإدراك الحق والباطل من الآراء ، والحسن والقبيح من الأخلاق ، والخير والشر من الأفعال ، حتي لو أن شيئاً في السماء تناله الفراسة أو تلهمه الفطرة أو توحي به الفكرة ، لتناوله محمد بفطرته السليمة ، وعقله الكامل وتأملاته الصادقة.

ونحن قد نؤمن بأكثر مما وصفوا من شمائله ، ولكننا نسأل :

هل كل ما في القرآن مما يستنبطه العقل والتفكير، ومما يدركه الوجدان والشعور؟ اللهم كلا .

ففي القرآن جانب كبير من المعاني النقلية البحتة التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط ، ولا سبيل إلي علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتلقي والتعلم.

(١) أخرجه مسلم في الموضع السابق.

(٢) ذكره الإمام النووي في شرحه للحديث ٥/ ٢٤٦.

ماذا يقولون فيما قصه علينا القرآن من أنباء ما قد سبق ، وما فصَّله من تلك الأنباء علي وجهه الصحيح كما وقع ؟

أيقولون : إن التاريخ يمكن وضعه أيضاً بإعمال الفكر ودقة الفراسة ؟ أم يخرجون إلي المكابرة العظمي فيقولون : إن محمداً ﷺ قد عاصر تلك الأمم الخالية ، وتنقل فيها قرناً فقرن، فشهد هذه الوقائع مع أهلها شهادة عيان، أو أنه ورث كتب الأولين ، وعكف علي دراستها حتي أصبح من الراسخين في علم دقائقها ؟

إنهم لا يسعهم أن يقولوا هذا ولا ذلك ، لأنهم معترفون - مع العالم كله -بأنه عليه السلام لم يكن من أولئك ولا من هؤلاء.

إلي أن قال رحمه الله :

انظر إلي جملة ما في القرآن من النواحي الإخبارية ، كيف يتناول بها محمد ﷺ ما وراء حسه وعقله ، من أنباء ما كان وما سيكون وما هو كائن ، وكيف أنه كلما حدثنا فيها عن الماضي صدقته شواهد التاريخ ، وكلما حدثنا عن المستقبل صدقته الليالي والأيام ، وكلما حدثنا عن الله وملائكته وشئون غيبه صدقته الأنبياء والكتب.

ثم اسأل نفسك بعد ذلك : أترين هذا الرجل الأميّ جاء بهذا الحديث كله من عند نفسه ؟.

تسمع منها جواب البديهة الذي لا تردد فيه : إنه لابد أن يكون قد استقي هذه الأنباء من مصدر علمي وثيق ، واعتمد فيها علي إطلاع واسع ودرس دقيق ، ولا يمكن أن تكون تلك الأنباء كلها وليدة عقله ، وثمرة ذكائه وعبقريته.

وإلا فأين هذا الذكي أو العبقري ، الذي أعطاه الدهر عهداً بأن يكون عاصماً لظنونه كلها من الخطأ في كشف وقائع الماضي مهما قَدُمَ ، وأنباء المستقبل مهما بَعُدَ ؟

إن الأنبياء أنفسهم – وهم في الطبقة العليا من الذكاء والفطنة بشهادة الكافة – لم يظفروا من الدهر بهذا العهد في أقرب الحوادث إليهم ، فقد كانوا – فيما عدا تبليغ الوحي – إذا اجتهدوا رأيهم فيما غاب عن مجلسهم أصابت فراستهم حيناً وأخطأت حيناً.

هذا يعقوب عليه السلام ، نراه يتهم بنيه حين جاءوا علي قميص ولده بدم كذب ، ثم يعود فيتهمهم حين قالوا له : إن ابنك سرق ، فيقول لهم في كل مرة : (بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل) (١).

وقد أصاب في الأولي ، ولكنه في الثانية اتهمهم وهم بُرآء.

وهذا موسي عليه السلام نراه يقول للعبد الصالح : (ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً)(٢)، ثم ينسي فلا يطيق معه صبراً، ولا يطيع له أمراً.

وهذا محمد ﷺ كان ربما هم الناس أن يضللوه في الأحكام ، فيدافع عن المجرم ظنا أنه برئ ، حتي ينبئه العليم الخبير.

وإن كنت في شك من ذلك فاقرأ قوله تعالي : [وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً. وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً. وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً] (٣) .

وقد صح في سبب نزولها أن لصاً عدا ذات ليلة علي مشربة(٤) لرجل من الأنصار يقال له رفاعة ، فنقب مشربته ، وسرق ما فيها من طعام وسلاح ، فلما أصبح الأنصاري افتقد متاعه ، حتي أيقن أنه في بيت بني أبيرق ، وكان فيهم منافقون ، فبعث ابن أخيه إلي النبي ﷺ يشكو إليه ، فقال ﷺ (سأنظر في ذلك) .

فلما سمع بذلك بنو أبيرق جاءوا إلي النبي ﷺ فقالوا : يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه رفاعة عمدا إلي أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت.

(١) من الآية ١٨ والآية ٨٣ من سورة يوسف.

(٢) الآية ٦٩ من سورة الكهف.

(٣) الآيات ١٠٥ : ١٠٧ من سورة النساء، والآية الثالثة مزيدة من صنع الباحث لتمام الفائدة، وليست في النبأ العظيم.

(٤) المشربة: الغرفة التي يوضع فيها الأمتعة والسلاح ونحوه.

فجاء قتادة فقال له النبي ﷺ : (يا قتادة عمدت إلي أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة علي غير ثبت وبينة).

فرجع قتادة إلي عمه فأخبره ، فقال عمه : الله المستعان ، ثم لم تلبث أن نزلت الآية تبين للنبي ﷺ خيانة بني أبيرق ، وتأمره بالاستغفار مما قال لقتادة .

الحديث رواه الترمذي[1]، وقال الحاكم : صحيح علي شرط مسلم[2].

۞ بل اسمع قوله ﷺ عن نفسه فيما يرويه أحمد وابن ماجة[3] :

(إنما أنا بشر مثلكم ، وإن الظن يخطئ ويصيب ، ولكن ما قلت لكم: ﴿ قال الله ﴾ فلن أكذب علي الله).

وقوله : (إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأحسب أنه صادق ، فأقضي له علي نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها). رواه مالك والشيخان وأصحاب السنن.[4]

فمن كان هكذا عاجزاً بنفسه عن إدراك حقيقة ما وقع بين خصمين في زمنه وفي

(١) أخرجه الترمذي - بأطول من ذلك - في كتاب التفسير، باب ومن سورة النساء برقم ٣٠٤٧، وقال الترمذي هذا حديث غريب، سننه ٥/ ٢٧ وما بعدها.

(٢) أخرجه الحاكم - بأطول من ذلك - في كتاب الحدود، برقم ٨١٦٤، وقال: صحيح علي شرط مسلم ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، المستدرك ٤/ ٤٢٦ .

وأخرجه الطبري في جامع البيان ٥/ ٢٦٥ وما بعدها، في تفسير سورة النساء.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢/ ١٧٩، من حديث طلحة بن عبيد الله، برقم ١٣٩٩، وقال الشيخ أحمد محمد شاكر: إسناده صحيح.

وأخرجه ابن ماجه في كتاب الرهون، باب تلقيح النخل، برقم ٢٤٧٠، سننه ٢/ ٨٢٥.

قلت: الحديث أخرجه - بنحوه - الإمام مسلم في كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قال شرعاً دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا علي سبيل الرأي، حديث رقم ٢٣٦١، صحيح مسلم بشرح النووي ٨/ ١٢٧.

(٤) الحديث سبق تخريجه قريباً صفحة ٥٠.

بلده ، وقد رأي أشخاصهما وسمع أقوالهما ، هو بلا شك أشد عجزاً عن إدراك ما فات وما هو آتٍ.

تلك هي شَقَّة[1] الغيب تنطفئ عندها مصابيح الفراسة والذكاء ، فلا يدنو العقل منها إلا وهو حاطب ليل وخابط عشواء ، إن أصاب الحق مرة أخطأه مرات ، وإن أصابه مرات أخطأه عشرات.

علي أن الذي يصادفه الصواب لا يمكن الوثوق ببقائه معصوماً من التغيير والتبديل ، بل عسي أن تذهب به ريح المصادفة ، كما جاءت به ريح المصادفة ، (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[2] . انتهي كلام الدكتور دراز، وما أحسنه وأجمله.[3]

وقد تأكد مما سبق أن الزعم بأن الوحي ما هو إلا أثر من آثار الكشف الوجداني والوحي النفسي . وأنه نتاج للاستنباط العقلي ، زعم باطل وافتراء كاذب ، مردود علي أصحابه.

(١) الشَّقُّ: الصُّبح، الصحاح ٢/ ١١٤١ مادة شقق.

(٢) أخر الآية ٨٢ من سورة النساء.

(٣) النبأ العظيم صفحة ٣٣ وما بعدها.

﴿ المطلب الخامس ﴾

الشبهة الخامسة

زعمهم أن الوحي الإسلامي ليس إلا تعاليم وأراء وأفكار الرسالات السابقة، كاليهودية والنصرانية.

حيث قالوا : إن محمداً ﷺ أسقط نفسه في التاريخ [1]، اطلع علي رسالات الأنبياء السابقين ، وقصص الأمم المندثرة وأخبارها ، واستفاد من ذلك في تقديم العبرة والعظة لأمته ، لتعرف ما ينتظرها إن هي عصت رسولها ، ولتعلم أيضاً أنه رسول الله ، وقد اعتبر محمد قصص الأنبياء الأولين أو الحوادث التي يستقيها من التاريخ في منزلة الوحي ، وألبسها ثوب العربية ، وجعلها ذات بنية واحدة.

ونرد علي هذه الشبهة الواهية فنقول :

إن هذا أيضاً منهم زعم باطل ، وكذب واضح ، وافتراء محض ، لا يستند إلي أي حقيقة تاريخية ، وأدلة تكذيبه وبطلانه أكثر من أن تحصي أذكر منها الآتي :

أولاً : واقع الكتب الثلاثة - التوراة والإنجيل والقرآن - يرد هذا الزعم الباطل.

فهم يقولون إن القرآن صياغة جديدة لما ورد في العهد القديم - التوراة - وما ورد في العهد الجديد - الإنجيل - .

ومعني هذا عندهم أن القرآن ليس له مصدر سماوي مستقل ، وليس وحياً أوحاه الله تعالي إلي محمد ، لكن محمداً - علي حد زعمهم - استقي فكرة القرآن من أهل الكتاب، يهوداً ونصارى.

ونقول لهؤلاء : إن واقع القرآن الكريم يختلف تماماً عن واقع التوراة والإنجيل ، في أصول الإيمان وجوانب التشريع ، وكثير من الأمور، الواردة في الكتب الثلاثة ، أو في بعضها دون بعض .

(١) معني إسقاط النفس في التاريخ أي تصور الذات في الحدث أو الواقعة التاريخية.

فمثلاً في أصول الإيمان :

نجد القرآن الكريم يختلف في عقيدة التوحيد عن كل من التوراة والإنجيل فعقيدة التوحيد في القرآن هي الركيزة الأولي في صرح الإيمان ، والله تبارك وتعالي فيها موصوف بكل كمال يليق بذاته المقدسة ، ومنزه عن كل نقص لا يليق بذاته المقدسة.

أما اليهود فقد أساءوا إلي الله تعالي ، فهم ينادونه في دعائهم قائلين : تنبه يا إلهنا كم تنام ، وقالوا : يد الله مغلولة ، وقالوا عزير ابن الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، وعبدوا العجل ٠ إلي غير ذلك من الأشياء المذكورة في توراتهم .

أما عقيدة التوحيد في الأناجيل فمعدومة ، فالله عندهم ثلاثة ، ونسبوا لله الصاحبة والولد ، وقالوا المسيح ابن الله ، وجردوا الله سبحانه وتعالي من سلطان الألوهية ، ووضعوه في يد عيسي عليه السلام ٠ وهذا أيضاً هو المذكور في أناجيلهم .

وإذا نظرنا إلي أمر آخر من أصول الإيمان كالإيمان بالرسل.

نجد الرسل جميعاً في القرآن الكريم عباد مصطفون أخيار، اصطفاهم الله تعالي من خلقه ، واختارهم لحمل الرسالة إلي عباده ، كما نجد القرآن يضع الرسل كلهم علي قدم المساواة في وجوب الإيمان بهم ، وبما أنزل عليهم ، من حيث المبدأ ، ومما نقرأه في القرآن : [آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ.....] [1].

بينما نجد التوراة تتحدث عن الرسل بما لا يليق بهم ، من أنهم يقترفون الذنوب والآثام ، ويزنون ، ويقتلون ، بل قد يقتل بعضهم بعضاً ولو من أجل حب امرأة أو عشقها ، بل ولا يتورع اليهود في التوراة من وصف بعض الرسل بعبادة الأوثان ، إرضاء لزوجاتهم الوثنيات ، كما حدث منهم لسليمان عليه السلام.

أما الأناجيل فنجد في بعضها وصف الرسل الذين سبقوا عيسي عليه السلام بأنهم

(١) أول الآية ٢٨٥ من سورة البقرة.

قتلة ولصوص.

علي أن اليهود والنصاري يفرقون – في مجال الإيمان – بين الرسل، فيؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعض.

۞ وإذا تركنا جانب أصول الإيمان، وولينا وجهنا شطر الجانب التشريعي، وجدنا بوناً شاسعاً بين التشريع القرآني، والتشريع التوراتي والإنجيلي، فمثلاً: القرآن الكريم يُحَرِّم الربا في جميع صوره، ومهما كانت الأطراف التي تتعامل به.[1]

أما في التشريع اليهودي: فالربا عندهم حرام في التعامل بين اليهود أنفسهم فقط، أما التعامل بالربا مع غير اليهودي فحلال حلال عندهم، فهم لا يحرمون أن يأخذ اليهودي الربا من غير اليهود.

ونجد في التشريع القرآني أن الناس جميعاً سواسية كأسنان المشط، ولا تفاضل بينهم بحسب الجنس أو النسب أو اللون أو غير ذلك، بل إن التفاضل يكون بالإيمان والتقوى والعمل الصالح.

أما في التشريع اليهودي، فالتفاضل بين الناس علي أساس العرق والنسب والدم، واليهودي – بهذا الاعتبار – هو سيد الناس جميعاً، ومن هنا يعتقد اليهود أنهم شعب الله المختار، ويعتقدون كذلك أن مصير العالم كله هو الخضوع لبني إسرائيل، وأن ملوك ورؤساء الشعوب – غير اليهود – سيكونون خُدَّاماً في بلاط مملكة الكون اليهودية، وأن زوجات ملوك ورؤساء الشعوب – غير اليهود – سَيَكُنَّ حاضنات ومرضعات ومربيات لأطفال اليهود..... فما أبعد ما بين الشريعتين؟ أما التشريع النصراني، فتكاد الأناجيل تخلو منه، لأنها عبارة عن تصوير حياة المسيح عليه السلام، من خلال وجهات نظر كاتبيها.[2]

(١) فالحرام في القرآن الكريم حرام علي المسلم وغيره، والحلال فيه كذلك حلال للمسلم وغيره، إلا في صور خاصة، كالتزوج من المرأة المسلمة، فهو حلال للمسلمين دون غيرهم.

(٢) افتراءات المستشرقين علي الإسلام، د/ عبد العظيم المطعني، صفحة ١٣ وما بعدها بتصرف

فهل يعقل – مع هذا كله – أن يكون مصدر القرآن الكريم هو التوراة أو الإنجيل، أو أن يكون محمد ﷺ جاء بتعاليم وأراء وأفكار الرسالات السابقة؟

ثانياً: واقع القرآن المكي والمدني يرد علي هذا الزعم أيضاً.

فمن سور القرآن الكريم ما نزل بمكة، ومنها ما نزل بالمدينة، وإذا دققنا النظر في تعداد السور المكية والمدنية، وجدنا معظم السور القرآنية مكياً، والقليل منها مدني[1].

ومن المعلوم للجميع أنه لم يكن بمكة أهل كتاب، من يهود أو نصارى

حتي القلة القليلة الموجودة منهم في مكة لم يكن لها أي احتكاك ثقافي بالوثنين العرب، ومن المعلوم كذلك أنه لم يكن لرسول الله ﷺ أي احتكاك ثقافي بأهل الكتاب – من يهود أو نصاري – خارج مكة.

فمن أين إذاً استمد النبي ﷺ القرآن في مكة؟ إن هو إلا وحي يوحي.

وحينما هاجر النبي الكريم ﷺ إلي المدينة، وحدث الاحتكاك الثقافي بينه وبين أهل الكتاب – خاصة اليهود الذين كانوا يسكنون المدنية – نزل القرآن المدني محتوياً علي جدل قوي بين النبي ﷺ وأهل الكتاب، فجاء القرآن المدني كاشفاً عورات أهل الكتاب – خاصة اليهود – في العقيدة والشريعة والأخلاق.

والمتدبر في آيات القرآن المدنية يجد حديثه عن اليهود مثلاً، وقتلهم الأنبياء، وتطاولهم علي الذات الإلهية، وعداوتهم للملائكة المقربين وتحريفهم للكتب المنزلة من عند رب العالمين، وادعاء أن الآخرة خالصة لهم من دون الناس، وأنه لن يدخل الجنة إلا مَن كان يهودياً أو نصرانياً، وكراهيتهم للإسلام ونبي الإسلام وكتاب الإسلام والمسلمين، هذا كله مع اعترافهم – فيما بينهم – وثقتهم بصدق محمد ﷺ في دعواه النبوة، فهم يعرفون أنه النبي الذي بشرت به كتبهم، أكثر من معرفتهم لأولادهم،

(١) قال السيوطي في الإتقان ١/ ٢٨: قال أبو الحسن بن الحصار في كتابه الناسخ والمنسوخ: المدني باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك مكي باتفاق أ. هـ.
قلت: وعليه فالمكي من القرآن اثنتان وثمانون سورة، من جملة مائة وأربع عشرة سورة. والله أعلم

لكنهم يكتمون الحق وهم يعلمون.

كله ذلك نقرأه في القرآن المدني ، يعني أن هذا القرآن نزل بعد احتكاك النبي ﷺ بأهل الكتاب في المدنية.

فهل يُعقل أن يكون أهل الكتاب – اليهود أو النصاري – هم أساس هذه المادة العلمية القرآنية التي جاء بها محمد ﷺ ، كما يزعم الجاهلون ؟

وهل يُعقل أن يُعطي أهل الكتاب سلاحاً لمحمد ﷺ ليشهره في وجوههم ويحاربهم به ، ويكشف عن مخازيهم ، ويفضحهم علي مر العصور؟!

فالمتأمل في موضوعات القرآن الكريم وموضوعات العهد القديم والعهد الجديد – التوراة والإنجيل – يظهر له بجلاء الفارق الكبير بين موضوعات هذا وذاك ، سواء أكان ذلك من جهة المضمون أم من جهة الأسلوب.

فإذا كان الأمر كما يزعم هؤلاء ، فلماذا لم يتأثر القرآن بأسلوب الثقافات السابقة ، كما جاءت في التوراة والإنجيل ، وكيف يأتي بكلام له أسلوبه الخاص، وليس له نظير سابق ، بل ويتعرض بالنقد للكتب السابقة.

ثالثاً : ثورة الإسلام علي العادات الجاهلية السيئة.

لا يخفي علي أحد أبداً ما كان عليه العرب – خاصة – قبل مجئ الإسلام، من أحوال دينية واجتماعية وسياسية وثقافية.

فالعقائد باطلة ، والمعاملات سيئة ، والأخلاق شاذة ، فتري الوثنية هي المذهب الشائع للتعبد عند العرب ، فقد كانت لهم معبودات شتي ، حيث كانوا يعبدون الأصنام والأوثان والأنصاب والنار والأشجار والجن والكواكب والملائكة ، يتخذون ذلك كله وسيلة تقربهم إلي الله عز وجل.

هذا بجانب اليهود الذين كانوا يتبعون ملة موسي عليه السلام ، والنصاري الذين كانوا يتبعون ملة عيسي عليه السلام ، كما كان فيهم الحنيفيون الذين يتعبدون علي بقايا من ملة إبراهيم عليه السلام.

كما انتشرت في كثير من قبائل العرب عادات مرذولة ، كوأد البنات ، ونكاح الاستبضاع ، والإغارة والحروب ، والسطو والغارات.... وغير ذلك كثير.

فقد كان العرب قبل مجئ النبي ﷺ في حال اضطراب شديد في كل مناحي حياتهم ، تخيم عليهم سحب قاتمة السواد ، من العداوات والبغضاء والانحلال الأخلاقي والفساد العقائدي ، حتي جاء محمد ﷺ فأخذ بيد العرب - والإنسانية جميعاً - فأخرجهم من الظلمات إلي النور بإذن ربه.

فإذا كان الأمر كما يزعم الجاهلون فلماذا لم تؤثر تلك الثقافات السابقة – التوراة والإنجيل – في العرب كما أثر القرآن الكريم فيهم ، لماذا لم يتهود العرب أو يتنصروا ، كما أسلموا بعد ذلك ؟

وللأستاذ عمر لطفي كلام جميل ، يرد به علي هذا الزعم الباطل، فيقول:

فإذا كان الأمر كذلك[1] فلنا ملء الحق في أن نتساءل : إذا كان لأصحاب الديانات أولئك مثل ما يدعون من نفوذ وتأثير علي جماهير الأعراب، فلماذا لم يقدروا أن يغيروا شيئاً من وثنية العرب علي مدي ألفي سنة ؟ !

ولو كان لتلك الديانات مثل ذلك التأثير الذي تحدثوا عنه ، فلم لم ينصروهم أو يهودوهم ، وقد خلت لهم الساحة قبل ظهور محمد علي مسرح الأحداث ؟

أجل . إذا كان للدينين مثل تلك السطوة والحظوة ، فلم لم يحدثوا فيهم مثل ذلك الانقلاب الذي أحدثه الإسلام ، وقد استطاع أن يحولهم بين عشية وضحاها من أمه كانت نسياً منسياً ، إلي أمة يُحْسَب لها ألف حساب...

لقد رسم المستشرق النمساوي (د/ فودك) الصورة المفزعة الآتية لمجتمع ما قبل الإسلام ، فأين كانت الحكمة التوراتية والمحبة المسيحية، وما الذي منعهما من أن تسديا

(١) يشير إلي قول المستشرقين: إن محمداً أسقط نفسه في التاريخ، اطلع علي قصص الأنبياء السابقين، وعرف أن الكتب السماوية لا ينبغي لرواياتها أن تختلف، أورد قصصهم لاستخلاص العبرة والدرس، والتذكير بسوء العاقبة لكل أمة لا تطيع نبيها، كل ذلك كي يضمن ولاء العرب باعتباره نبي الأمة في ذلك العصر.

خدمة للجاهلين العرب ، وهما تعيشان بين ظهرانيهم.

بعض الأخبار تحدثت عن الخشونة والقسوة ، وعن أكلة للحوم البشر، أما عن الثأر والقتل فحدث ما شئت ، وقبيلة بني حمدان كانت تقدم نذراً سنوياً ، عروساً لأحد كبار الجوارح ، وأشعار النابغة الذبياني تحدثت عن أن الدم كان يُسْفح عند الكعبة.

والعجيب في الأمر أنه كلما صحت المقابلة وتطابقت الملامح بين النصوص ، ردوا ذلك إلي ثقافة الرسول التاريخية ، وإلي إطلاعه علي ما جاء في الكتب السماوية ، أما حين يقع الاختلاف ، فلا يقولون إن كتبهم هي التي زُوِّرَت وغُيِّرَت وحُرِّفت، بل يسعون إلي تبرئة أنفسهم من تلك التهمة وإلصاقها بالإسلام . أ. هـ.[1]

رابعاً : التوافق بين القرآن والكتب السابقة دليل للقرآن لا ضده.

فإن التشابه والتوافق بين المفاهيم القرآنية ، والتعاليم اليهودية والنصرانية لا يرجع إلي عملية سطو علي الأديان الأخرى ، كما يحلو لهم تسميتها ، وإنما يرجع إلي وحدة المصدر.

وهذا دليل قوي إلي جانب الإسلام والقرآن ، لا ضده كما يزعمون ، فإن الديانات السماوية علي اختلاف أزمنتها وأمكنتاه مصدرها واحد ، لأنها من الله تعالي العليم الخبير.

لذلك حينما سمع النجاشي من المسلمين سورة مريم ، وفيها ما فيها من حديث عن المسيح وأمه – عليهما السلام – بكي حتي أخْضَلت[2] لحيته وبكت أساقفته حتي أخضلوا مصاحفهم ، حين سمعوا ما تلي عليهم من القرآن ، وقال النجاشي كلمته المشهورة : (إن هذا والذي جاء به عيسي ليخرج من مشكاة واحدة)[3].

(١) المستشرقون والقرآن صفحة ٧٤ وما بعدها.

(٢) يعني ابتلت، قال في الصحاح ٢/ ١٢٦٥ مادة خضل: أخْضَلْتُ الشئ في مُخْضَل إذا بللته، وشئ خَضِلٌ أي رطب.

(٣) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ١/ ٢٤٧ وما بعدها.

وكان الرجل نصرانياً ، صادقاً في نصرانيته.

خامساً : القرآن ينفي إطلاع الرسول ﷺ علي أخبار السابقين.

ففي القرآن الكريم نفي صريح لإطلاع النبي ﷺ علي أخبار الأمم الماضية ، وفيه أيضاً إثبات واضح لعدم حضور النبي ﷺ أحداث السابقين ، ومما نقرأه في القرآن الكريم قوله تعالي : [وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ] [1] .

ومن لطائف وظرائف الصدف – كما يقول عمر لطفي – أن المستشرق (باريت) تعجب في مقالته من التفاصيل الدقيقة التي يلم بها الرسول ، ثم عاد ليؤكد : (يجب أن نعترف لمحمد بصراحة موضوعية أنه رسول) [2] . والفضل ما شهدت به الأعداء.

فلكل ما سبق نقول للذين يزعمون أن الوحي الإسلامي ليس إلا تعاليم وآراء وأفكار الرسالات السابقة ، كاليهودية والنصرانية ، هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، وألقوا ما أنتم ملقون، فإنا سنلقف ما تصنعون ، ولن تضروا الحق شيئاً ، علي حد قول الشاعر:

هل يضر البحر أمسي زاخراً أن رمي فيه غلام بحجر

(١) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت.

(٢) المستشرقون والقرآن صفحة ٧٤.

﴿ المطلب السادس ﴾

الشبهة السادسة

زعمهم أن محمداً ﷺ قد تلقي العلوم القرآنية علي يد معلم من البشر.

فهم يزعمون أن محمداً ﷺ لقي قبل البعثة بحيرا الراهب ، ونسطورا الراهب ، كما التقي بورقة بن نوفل في مكة ، كما التقي بعلماء أهل الكتاب في المدنية ، وقد سمع من هؤلاء ، وأخذ عنهم ، وتعلم منهم ! !

ونرد علي هذه الشبهة فنقول :

إن هذا أيضاً منهم زعم باطل ، وافتراء كاذب ، وادعاء يرده التاريخ الثابت.

وتلك شبهة قديمة ، أثارها نقاد القرآن أيام نزوله علي قلب النبي الله ﷺ حيث اتهموا الرسول ﷺ بقولهم : (إنما يعلمه بشر) ، كما حكي القرآن عنهم ذلك.

وإذا سألت هؤلاء : مَن هذا الأستاذ الذي تعلم محمد ﷺ علي يديه ، ما اسمه ؟ تري الجواب المتهافت المتداعي الذي لا يخلو من الغرابة والعجب.

لقد لجأوا إلي رجل في نسبة الأستاذية إليه شئ من الطرافة والهزل، حتي إذا جئت العقول نسبة الأستاذية إليه لاستحالتها ، قبلتها النفوس لهزلها وطرافتها ، فقالوا : (إنما يعلمه بشر).

قيل : أرادوا سلمان الفارسي ، وقيل : أرادوا صهيب الرومي ، وقيل : أرادوا حداداً رومياً – وهو المشهور– اسمه سبيعة ، وقيل: يعيش وقيل : بلعام ، وقيل غير ذلك[1].

لقد اختار كفار قريش هذا الرجل بالذات لأنه اجتمع فيه أمران، حسبوهما مناط ترويج تهمتهم.

أحدهما : أنه مقيم بمكة إقامة تيسر لمحمد الاتصال الدائم الوثيق به ، والتلقي عنه.

والآخر: أنه غريب عنهم ، وليس منهم ، ليخيلوا إلي قومهم أن عند هذا الرجل

(١) راجع: روح المعاني للألوسي ١٤/ ٣٤٤ وما بعدها، عند تفسير الآية ١٠٣ من سورة النحل.

علم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم.

فيكون ذلك أدني إلي التصديق بأستاذيته لمحمد.

لكن غاب عن هؤلاء أن الرجل المعني بذلك أعجمي اللسان ، لا يُحْسِن العربية ، ولا تعدو قراءته أن تكون رطانة بالنسبة إلي العرب ، وهو فوق ذلك عاميّ الفؤاد ، لم تعرفه مكة إلا حداداً منهمكاً في مطرقته وسندانه ، فكيف يُستساغ عقلاً أن تكون العلوم القرآنية صادرة عن رجل كهذا ، لم تعرفه مكة متفرغاً لدراسة العلوم والكتب.

وليس بمعقول أن يكون هذا الرجل الأعجمي مصدراً لهذا القرآن ، الذي هو معجزة المعجزات ، ومفخرة العرب واللغة العربية. [1]

ولقد اتخذ القرآن الكريم من حال الرجل دليلاً علي كذب المدَّعين لهذه الشبهة ، فقال سبحانه وتعالي : [وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ] [2] .

لكن ملاحدة العصر الحديث أثبتوا أنهم أجهل من زعماء الجاهلية الأولي ذلك لقولهم إن محمداً تعلم علي يد بحيرا أو نسطورا أو ورقة بن نوفل ، أو علماء أهل الكتاب . هذا زعم باطل ، مردود لعدة أسباب منها :

أولاً : الواقع التاريخي يكذب ذلك.

إن القول بأن النبي ﷺ قد استعان بالراهب بحيرا ، أو بالراهب نسطورا أو بورقة بن نوفل ، أو بغيرهم ، في تأليف القرآن الكريم يرده ويكذبه الواقع التاريخي الثابت.

لأن المعروف الثابت تاريخياً أن النبي ﷺ لم يلق بحيرا الراهب إلا مرة

واحدة في طفولته ، وذلك حين خرج مع عمه أبي طالب في تجارة إلي الشام ، وكان رسول الله ﷺ ابن تسع سنين ، وقيل ابن اثنتا عشرة سنة ، ولم يتجاوز اللقاء إلا لحظات معدودة ، رأي فيها بحيرا سحابة تظل النبي ﷺ من حر الشمس ، فتعرف بحيرا علي

(١) مناهل العرفان ٢/ ٤٢٣ بتصرف.

(٢) الآية ١٠٣ من سورة النحل.

النبي ﷺ ، وذكر لعمه أنه سيكون لهذا الغلام شأن ، ثم حذره عليه من اليهود ، ووصاه به خيراً ، ونصحه أن يرجع به ، وفعلاً رجع به عمه خوفاً عليه ، ولم يتم الرحلة.

ولم يثبت – في أيّ من الروايات التاريخية الواردة في هذا الشأن – أن النبي ﷺ سمع من بحيرا الراهب علماً ما ، أو تلقي منه درساً ، لا في العقائد ولا في العبادات ولا في المعاملات ولا في الأخلاق.

فأنَّي يأتي ذلك مَن أتي ، قاتلهم الله أني يؤفكون .

وكذلك لم يلق رسول الله ﷺ الراهب نسطورا إلا مرة واحدة في شبابه ، حين خرج في تجارة السيدة خديجة إلي الشام ، مع غلامها ميسرة ، وكان ذلك قبل زواجه ﷺ بالسيدة خديجة ، وكان ﷺ في الخامسة والعشرين من عمره المبارك ، وكل الذي تحدث به نسطورا الراهب كان مع ميسرة. (١)

وكانت هذه هي المرة الثانية والأخيرة في رحلاته ﷺ خارج مكة. (٢)

وكذلك لم يلق رسول الله ﷺ ورقة بن نوفل إلا مرة واحدة ، حين بدأه الوحي ، فذهبت به زوجه السيدة خديجة رضي الله عنها إلي ابن عمها ورقة ، الذي كان قد تنصر في الجاهلية وسمع ورقة من النبي ﷺ أنباء الوحي ، فبشره بالنبوة ، وتمني نصرته.

ولم تذكر الروايات كذلك أن ورقة ألقي إلي رسول الله ﷺ عظة أو درساً في العقائد أو التشريع أو الأخلاق . هذا هو الثابت تاريخياً في لقاء الرسول ﷺ بهؤلاء الثلاثة : بحيرا، ونسطورا، وورقة.

فقل لي بالله عليك : إن كان الرسول ﷺ لم يلتق بهؤلاء الثلاثة إلا مرة واحدة فقط في حياته المباركة ، وكانت مدة اللقاء بينه وبين كل واحد من هؤلاء الثلاثة وجيزة إلي هذا الحد الثابت في التاريخ.

(١) راجع لقاء الرسول ﷺ مع بحيرا ونسطورا في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٣٩، ١٤٧.

(٢) فالتاريخ لا يعرف أكثر من أنه ﷺ سافر إلي الشام في تجارة مرتين، مرة في طفولته، والتقي فيها بالراهب بحيرا، ومرة أخري في شبابه، والتقي فيها بالراهب نسطورا.

فهل يُعقل أن يقف واحد من هؤلاء الثلاثة موقف المعلم المرشد لرسول الله محمد ﷺ .

إن العقل يحكم باستحالة أن يتعلم الرسول ﷺ كل هذه العلوم القرآنية – من بدء الخلق إلي ما بعد نهايته – في هذا اللقاء الوجيز .

ثانياً : نفس الروايات التاريخية في ذلك تكذب تلك الشبهة.

فإن المتدبر في تلك الروايات التاريخية الثابتة ، وما حدث أثناء اللقاءات الثلاثة بين النبي ﷺ وبحيرا ونسطورا وورقة ، يلفت نظره أن تلك الروايات شاهدة للقرآن والوحي المحمدي ، لا شاهدة عليه.

لأن كل ما حدث في تلك المقابلات ما كان إلا تبشيراً بنبوته ﷺ ، والإخبار بأنه سيكون لمحمد عظيم الشأن ، بل والإيمان بنبوة محمد ﷺ فقد جاء في بعض الروايات أن نسطورا الراهب لما تحقق من صفات النبوة في رسول الله ﷺ ، ما زاد علي أن جاء إلي رسول الله ﷺ وقبَّل رأسه وقدميه ، وقال : آمنت بك ، وأنا أشهد أنك الذي ذكره الله في التوراة ، ثم قال – نسطورا – لميسرة بعد أن خلا به : يا ميسرة هذا نبي هذه الأمة ، والذي نفسي بيده إنه لهو الذي تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم.

ومثله وقع من ورقة بن نوفل ، حين سمع من النبي ﷺ خبر الوحي ، قال ورقة : هذا هو الناموس الذي أنزل علي موسي، ليتني فيها جذعاً[١]، ليتني أكون حياً ، إذا يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجيّ هُمْ ؟ قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل بما جئت به إلا أذي ، وإن يدركني يومك حياً أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب[٢] ورقة أن توفي وفتر الوحي [٣] .

(١) أي شاباً قوياً، والضمير في (فيها) يعود علي النبوة وأيام الدعوة .

(٢) يعني لم يلبث.

(٣) أخرجه البخاري – من حديث طويل – في كتاب التفسير، باب سورة اقرأ، حديث رقم ٤٩٥٣، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٨/ ٥٨٥ وما بعدها.

فكيف يُعقل أن يبشر بحيرا أو نسطورا أو ورقة بنبوه محمد ﷺ ، بل ويؤمنوا بهذه البشارة التي يزفونها ، ثم ينصب أحدهم نفسه أستاذاً لصاحبها الذي سيأخذ عن الله تعالي ، ويتلقى عن جبريل ، ولو حدث ذلك لكان هذا المبشر – بحيرا أو نسطورا أو ورقة – متناقضاً مع نفسه.

ثالثاً : أميّة النبي ﷺ ترد هذا الزعم الباطل.

إن الواقع الذي يشهد به التاريخ ، ولا يُمَارِي فيه عاقل ، هو أن محمداً ﷺ قد نشأ أميّاً، لا يعرف القراءة والكتابة والحساب ، وعاش – قبل نزول الوحي عليه – أميّاً في أمة أميّة ، لا تقرأ ولا تكتب ولا تحسب.

هذا متفق عليه بين العامة والخاصة ، وقد ثبت تاريخياً أن لقاءات الرسول ﷺ بالثلاثة المعنيين كانت لمرة واحدة ، وللحظات قليلة معدودة.

فهل يُعقل أن يتعلم إنسان ويتثقف وينضج هذا النضج الخارق للعادة فيما تعلمه وتثقف فيه ، حتي يصبح أستاذ العالم كله ، لمجرد أنه لقي مصادفة راهباً من الرهبان مرة واحدة أو مرتين.

علي حين أن هذا التلميذ لم يكن متفرغاً لتلقي العلم وأخذ الثقافة ، بل كان فوق كونه أميّاً – لا يقرأ ولا يكتب – مشتغلاً بالتجارة عن التعليم ، في كلتا المرتين.

زد علي ذلك أنه كان في المرة الأولي صغيراً ، تابعاً لعمه ، وكان في المرة الثانية حاملاً لأمانه ثقيلة في عنقه ، لابد أن يؤديها كاملة ،

وهي أمانة العمل والإخلاص في مال خديجة وتجارتها.

رابعاً : طبيعة الأديان السابقة وما كانت عليه ترد هذا الزعم أيضاً.

قلنا قبل ذلك إن الفارق الكبير بين ما جاء به النبي ﷺ وما كانت عليه

تعاليم وأفكار الرسالات السابقة وقت نزول القرآن ، يأبى أن تكون تعاليم الرسالات السابقة سبباً في الوحي المحمدي.

ونؤكد هذا مرة أخري فنقول هنا : إن طبيعة الدين الذي كان بحيرا الراهب–

وغيره – ينتمي إليه ، تأبي أن تكون مصدراً للقرآن وهداياته ، خصوصاً بعد أن أصاب ذلك الدين ما أصابه من تغيير وتحريف.

وحسبك أدلة علي ذلك ما ذكرناه سابقاً من المقارنات بين تعاليم القرآن وتعاليم الرسالات السابقة. (١)

فقد صور القرآن الكريم علوم أهل الكتاب في زمانه بأنها الجهالات ، ثم تصدي لتصحيحها ، كما صور عقائدهم بأنها الضلالات ، ثم عمل علي تقويمها ، كما صور أعمالهم بأنها المخازي والمنكرات ، ثم حض علي تركها.

فإذا كان هذا حال ما ينتمي إليه بحيرا ونسطورا وورقة ، فكيف يعقل أن يكون واحداً منهم أستاذاً لمحمد ﷺ ، في معرفة العلوم القرآنية.

وفاقد الشئ لا يعطيه ، والخطأ لا يمكن أن يكون أبداً مصدراً للصواب، كما أن الظلام لا يمكن أبداً أن يكون مشرقاً للنور. (٢)

خامساً : عدم ذكره ﷺ لهؤلاء بعد نبوته يكذب هذا الادعاء أيضاً.

فالنبي ﷺ لم يتعرض بالذكر لواحد من هؤلاء بعد نبوته ﷺ ، أتراه ﷺ علي هذا القدر من الجحود ونكران الجميل إلي درجة أنه لا يذكر أحد أساتذته بالفضل ، ولو مرة واحدة ، فلو كان هؤلاء أساتذة لمحمد ﷺ لذكرهم بالمدح والجميل ، وتودد إليهم وتقرب منهم ، هذا حال التلميذ مع أستاذه ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث منه ﷺ لواحد من هؤلاء ، ولو حدث لنقله إلينا التاريخ.

ولو وقع ذلك – أن محمداً تتلمذ علي يد واحد من هؤلاء – ما سكت الأعداء وقت نزول القرآن علي ذلك ، وما عدلوا عن هؤلاء إلي رجل

أعجمي ، ليتهموه بأنه أستاذ لمحمد ﷺ ، كما حكي القرآن عنهم ذلك.

ولو كان أحد هؤلاء الثلاثة – بحيرا ، نسطورا ، ورقة – أستاذاً لمحمد ﷺ ،

(١) راجع صفحة ٥٨ وما بعدها من هذا البحث.

(٢) مناهل العرفان ٢/ ٤٢١ وما بعدها بتصرف.

ومصدراً لهذا الوحي المعجز، فما الذي منع هذا الأستاذ من ادعاء النبوة لنفسه ، فلو كان الأمر كما يقولون لكان هذا الأستاذ هو الأحري بالنبوة والرسالة ، والانتداب لهذا الأمر العظيم ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

وبهذا يتبين أن رسول الله ﷺ لم يكن له معلم تلقي عنه القرآن غير أمين الوحي جبريل عليه السلام ، قال تعالي عن محمد ﷺ : [وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى] (١) .

إذاً تعلم محمد ﷺ علي يد أستاذه ، لكنه الروح الأمين ، وفعلاً درس محمد ﷺ هذه العلوم واكتتبها ، ولكن في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كراما بررة ، قال تعالي : [قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ولا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ] (٢)

۞ وأختم الحديث في الرد علي هذه الشبهة الواهية بما قاله الدكتور دراز، في بيان أن محمداً ﷺ لابد أن يكون أخذ القرآن عن معلم ، قال رحمه الله :

البحث في الأوساط البشرية عن ذلك :

لا مناص للباحث عن مصدر القرآن من توسيع دائرة بحثه ، فإذا لم يظفر بمطلبه عن صاحب القرآن في ناحية عقله وفراسته ، وجب أن يلتمسه – وأن يظفر به حتماً – في ناحية تعليمه ودراسته ، لأن المتكلم بكلام ما لا يعدو أن يكون قائلاً له أو ناقلاً ، ولا ثالث لهما.

نعم إن صاحب هذا القرآن لم يكن ممن يرجع بنفسه إلي كتب العلم ودواوينه ، لأنه باعتراف الخصوم كما ولد أمياً عاش أمياً ، فما كان يوماً من الأيام يتلو كتاباً في قرطاس ولا يخطه بيمينه ، فلا بد له من معلم يكون قد وقفه علي هذه المعاني ، لا بطريق الكتابة والتدوين ، بل بطريق الإملاء والتلقين . هذا هو حكم المنطق.

(١) الآيات ١ : ٥ من أول سورة النجم.

(٢) الآية ١٦ من سورة يونس.

ستقول : فمن هو ذلك المعلم ؟

نقول : هذا هو الشطر الثاني من مسألة القرآن.

وأنت إذا تأملت فيما سقناه لك من البراهين علي الشطر الأول ، وجدت بجانب كل منها برهاناً آخر علي هذا الشطر الثاني ، وعرفت مَن هو ذلك المعلم ؟ غير أننا نحب أن نزيدك به معرفه ، حتي تقول معنا فيه : (ما هذا بشراً ، إن هو إلا ملك كريم ، مبلغ عن رب العالمين).

البحث عنه بين الأميين :

أما أن محمداً ﷺ لم يكن له معلم من قومه الأميين ، ذلك ما لا شبهة فيه لأحد ، ولا نحسب أحداً في حاجه إلي الاستدلال عليه بأكثر من اسم (الأمية) ، الذي يشهد عليهم بأنهم كانوا خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون من أمر الدين شيئاً ، وكذلك اسم (الجاهلية) ، الذي كان أخص الألقاب بعصر العرب قبل الإسلام ، فهؤلاء الذين فقدوا أساس هذا العلم في أنفسهم حتي اشتق لهم من الجهل اسم ، كيف يحملون وسام التعليم فيه لغيرهم ، بله التعليم لمعلمهم الذي وسمهم بالجهل غير مرة في كتابه ، وسرد جهالاتهم في غير سورة من هذا الكتاب ، حتي قيل : إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما بعد المائة من سورة الأنعام.

وأما أنه لم يكن له معلم من غيرهم ، فحسب الباحث فيه أن نحيله علي التاريخ ، وندعه يقلب صفحات القديم منه والحديث ، والإسلامي منه والعالمي ، ثم نسأله : هل قرأ فيه سطراً واحداً يقول : إن محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب لقي قبل إعلان نبوته فلاناً من العلماء ، فجلس إليه يستمع من حديثه عن علوم الدين ، ومن قصصه عن الأولين والآخرين ؟

ليس علينا نحن أن نقيم برهاناً أكبر من هذا التحدي ، لإثبات أن ذلك لم يكن ، وإنما علي الذين يزعمون غير ذلك أن يثبتوا أن ذلك قد كان ، فإن كان عندهم علم (فليخرجوه لنا إن كانوا صادقين).

البحث عنه بين أهل العلم :

لا نقول إنه عليه السلام لم يلق ولم ير بعينه أحداً من علماء هذا الشأن ، لا قبل دعوى النبوة ولا بعدها ، فنحن نعرف أنه رأي في طفولته راهباً اسمه بحيرا في سوق بصري بالشام ، وأنه لقي في مكة نفسها عالماً اسمه ورقة بن نوفل ، وكان هذا علي إثر مجئ الوحي العلني له ، وقبل إعلان نبوته بثلاثين شهراً ، كما نعرف أنه لقي بعد إعلان نبوته كثيراً من علماء اليهود والنصاري في المدينة.

ولكننا ندعي دعوى محدودة ، نقول : إنه لم يتلق عن أحد من هؤلاء العلماء لا قبل ولا بعد ، وإنه قبل نبوته لم يسمع منهم شيئاً من هذه الأحاديث البتة.

أما الذين لقوه بعد النبوة فقد سمع منهم وسمعوا منه ، ولكنهم كانوا له سائلين وعنه آخذين، وكان هو لهم معلماً وواعظاً ومنذراً ومبشراً.

وأما الذين رآهم قبل ، فإن أمر لقائه إياهم لم يكن سراً مستوراً ، بل كان معه في كل مرة شاهد ، فكان عمه أبو طالب رفيقاً له حين رأي راهب الشام ، وكانت زوجه خديجة رفيقة له حين لقي ورقة.

فماذا سمعه هذان الرفيقان من علوم الأستاذين ؟ هلا حدثنا التاريخ بخبر ما جري؟ وما له لا يحدثنا هذا الحديث العجب ، الذي جمع في تلك اللحظة القصيرة علوم القرآن وتفاصيل أخباره ، فيما بين بداية العالم ونهايته !

ولماذا لم يتخذ خصومه من هذه الحجة الواضحة سلاحاً قاطعاً لحجته ، مع شدة سعيهم في هدم دعواه ، والتجائهم لأوهن الشبهات في تكذيبه ، وقد كان هذا السلاح أقرب إليهم ، وكان وحده أمضي في إبطال أمره من كل ما لجأوا إليه من مهاترة ومكابرة.

إن سكوت التاريخ عن ذلك كله حجة كافية علي عدم وجوده ، لأنه ليس من الهنات الهينات التي يتغاضي عنها الناس ، الواقفون لهذا الأمر بالمرصاد ، علي أن التاريخ لم يسكت ، بل نبأنا بما كان من أمر الرجلين.

فقد حدثنا عن راهب الشام أنه لما رأي هذا الغلام رأي فيه من سيما النبوة الأخيرة وحليتها في الكتب الماضية ما أنطقه بتبشير عمه قائلاً : إن هذا الغلام سيكون له شأن عظيم.

وحدثنا ورقة أنه لما سمع ما قصه عليه النبي من صفة الوحي ، وجد فيها من خصائص الناموس الذي نزل علي موسي ، ما جعله يعترف بنبوته ويتمني أن يعيش حتي يكون من أنصاره.

فمن عرف للتاريخ حرمته ، وآمن بوقائعه كما هي ، كانت هذه الوقائع حجة لنا عليه ، ومن لم يستحي أن يزيد في التاريخ حرفاً من عنده فيقول : إن محمداً ضم السماع إلي اللقاء ، فليتقول ما يشاء ، وليعلم أنه سوف يُخرج لنا بهذه الزيادة تاريخاً متناقضاً ، يكذب أوله آخرة ، إذ كيف يعقل أن رجلاً رأي علامات النبوة في امرئ فبشره بها قبل وقوعها ، أو آمن بها بعد وقوعها ، تطاوعه نفسه أن يقف من صاحب هذه النبوة موقف المرشد المعلم ! فأين يذهبون ؟ أ. هـ [1].

والله تعالي من وراء القصد

وهو سبحانه الهادي إلي سواء السبيل

(١) النبأ العظيم صفحة ٥٠ وما بعدها.

﴿الخاتمة﴾

تلك كانت بعض - وأهم - شبهات المضلين حول ظاهرة الوحي الإلهي لنبينا محمد ﷺ والرد عليها ، ذكرناها من باب مجاراة الخصم ، مع إيماننا الجازم بأن الوحي حق ، وأن النبوة صدق .

وأختم بحثي هذا بقولي للذين يشككون في الوحي ، الذين ينكرون كل ما وراء المادة ، ومن ثم يكفرون برسالة النبي محمد ﷺ ، أقول لهؤلاء :

أولاً : إن محمداً ﷺ قد عُرِف بين قومه بالصادق الأمين ، حتى اشتهر بذلك أكثر من شهرته باسمه (محمد بن عبد الله) ، وقد نقلت لنا كتب السيرة والتاريخ شهادة الأعداء في حقه ﷺ بالصدق والأمانة ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

ثانياً : إن الشعور بأعراض الوحي وظواهره لم يكن قاصراً علي رسول الله ﷺ ، بل كان الحاضرون بجواره يشاركونه هذه الأعراض وتلك الظواهر ، فكانوا يرون النبي ﷺ وقد احْمَرَّ وجهه فجأة ، وأخذته البُرَحاء حتى كان جبينه ﷺ يتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، ويبلغ منه ﷺ الجهد ، ويثقل جسمه الشريف ﷺ ، حتى يكاد يرُضُّ فخذه ﷺ فخذ الجالس بجانبه ، كما حدث لزيد بن ثابت رضي الله عنه ، وحتى لو كان ﷺ راكباً لبركت به راحلته ، كما كانوا يسمعون عند وجهه الشريف ﷺ بعض الأصوات المختلفة ، كدوى النحل وصلصلة الجرس ، ثم لم يلبث أن تُسرَّى عنه تلك الشدة فإذا هو يتلو وحياً عظيماً ، وقرآناً جديداً مُحدثاً وكل ذلك جاءت به الأحاديث الصحيحة.

ثالثاً : جاء الواقع العلمي المعاصر ليرد علي الذين ينكرون الوحي ، لإنكارهم كل ما وراء المادة ، فواقعنا العلمي المعاصر لم يبق حجة لمنكري الوحي .

فالناظر في المخترعات العلمية الحديثة يتضح له إمكانية حدوث الوحي ، حيث إن في تلك المخترعات ما يُقرِّب الوحي إلي العقل البشري ، ويثبته بطريق علمي واضح .

فقد توصل العلم الحديث إلي نظريات عديدة أصبحت بها ظاهرة الوحي حقيقة ممكنة ومُسَلَّمة ، لا ينكرها أو يكذب بها إلا مكابر جاهل غبي ، أو متكبر

أحمق عتي .

ولقد اتخذ كثير ممن تناولوا ظاهرة الوحي بالبحث والدراسة هذه المخترعات العلمية الحديثة سبيلاً لإمكان حدوث الوحي ، ودليلاً واضحاً يثبت وقوعه ، وعلى رأس هؤلاء الأعلام الدكتور محمد عبد الله دراز وشيخ الأشياخ محمد عبد العظيم الزرقاني ، رحمهما الله .

وأذكر من هذه المخترعات علي سبيل المثال لا الحصر ما يأتي :

١- التنويم الصناعي ، أو ما يُعرف بالتنويم المغناطيسي ، والذي أصبح من المقررات العلمية الثابتة .

يقول الدكتور دراز :

وأعجوبة التنويم المغناطيسي آية علمية واضحة ، تمثل للناس الوحي تمثيلاً بليغاً ، فقد أصبح الرجل القوي الإرادة يستطيع أن يتسلط بقوة إرادته علي مَن هو أضعف منه، حتي يجعله ينام بأمر نوماً عميقاً ، لا يشعر فيه بوخز الإبر ، وهناك يكون رهين إشارته ، وتنمحي إرادته في إرادته ، فلو شاء أن يمحو من نفسه رأياً أو عقيدة لمحاها بكلمة واحدة . إلي أن قال رحمه الله :

فإذا كان هذا فعل الإنسان بالإنسان ، فما ظنك بمَن هو أشد منه قوة ؟

فذلك مَثل حامل الوحي ومتلقيه عليهما السلام : هذا بشر مطواعٌ ذو روح صاف يقبل انطباع العلوم فيه ، وذلك ملكٌ شديد القوي ، ذو مِرَّة يحمل إليه رسالته ويقرئها إياه ، فلا ينسي إلا ما شاء الله .

بيد أنَّ بُعْداً شاسعاً بين هذا الوحي النبوي ووحي الناس بعضهم لبعض ، فالناس كما عرفت قد يوحون زخرف القول غروراً ، وكثيراً ما يترك وحيهم في نفس متلقيه أعراضاً عقلية أو بدنية يصعب علاجها .

فأين هذا من الوحي بين رسولين مؤيدين ، اصطفاهما الله لرسالته : رسول من

الملائكة ورسول من الناس ؟[1] .

كما اتخذ الشيخ الزرقاني من التنويم المغناطيسي دليلاً علي إمكان حدوث الوحي ، وتقريبه إلي العقول ، حيث يقول رحمه الله :

التنويم المغناطيسي ، وهو من المقررات العلمية الثابتة .....

ثم تحدث الشيخ عن اكتشافه واعتراف العلماء به علمياً ، بعد أن اختبروا به الآلاف المؤلفة من الخلق ، واطمأنوا إلي تجاربه ، وأثبتوا بوساطته أموراً ، ذكرها الشيخ ....

ثم ساق تجربة من تجارب التنويم المغناطيسي ، كان هو فيها شاهد عيان كإثبات لحجية كلامه ....

ثم قال : وبهذه التجربة أيضاً ثبت لي أنا من طريق علمي ، ما يقرب إليَّ الوحيَ عملياً ، وما جعلني أُعَلِّلُه تعليلاً علمياً :

فالوحي – عن طريق الملك – عبارة عن اتصال الملك بالرسول اتصالاً يؤثر به الأول في الثاني ، ويتأثر فيه الثاني بالأول ، وذلك باستعداد خاص في كليهما ، فالأول فيه قوة الإلقاء والتأثير ، لأنه روحاني محض والثاني فيه قابلية التلقي عن هذا الملك لصفاء روحانيته ، وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك ، وعند تسلط الملك علي الرسول ينسلخ الرسول عن حالته العادية ، ويظهر أثر التغيير عليه ، ويستغرق في الأخذ والتلقي عن الملك ، وينطبع ما تلقاه في نفسه ، حتي إذا انجلي عنه الوحي وعاد إلي حالته الأولي ، وجد ما تلقاه ماثلاً في نفسه ، حاضراً في قلبه ، كأنما كتب في صحيفة فؤاده كتاباً .

ثم عقب الشيخ رحمه الله تعالي علي ذلك فقال :

أتظن – أيها القارئ الكريم – أن المخلوق يستطيع أن يؤثر في نفس مخلوق آخر ذلك التأثير بواسطة التنويم المغناطيسي ، ثم لا يستطيع مالك القوي والقدر أن يؤثر في

(١) النبأ العظيم، صفحة ٦٦ وما بعدها .

نفس مَن شاء مِن عباده بواسطة الوحي ؟ كلا ثم كلا (إنه علي ما يشاء قدير) [1] .

٢- ودليل علمي آخر علي إمكان حدوث الوحي ، يتلخص في تلك المخترعات العلمية الحديثة ، التي أمكن للإنسان عن طريقها أن يتواصل مع غيره ، وأن يخاطبه في آفاق بعيدة .

ومن هذه المخترعات التليفون المحمول واللاسلكي وشبكة المعلومات (الإنترنت) وما شابه ذلك ، فقد يتخاطب الإنسان في أقصى المشرق مع صاحبه في أقصي المغرب عن طريق وسيلة اتصال من هذه الوسائل ، وقد يتراءيان مع هذا التخاطب ، ولا يسمع الجالسون بجانبهما شيئاً ، إلا

أزيزاً كدوى النحل ، الذي هو في صفة الوحي .

فهل يُعقل بعد قيام هذه المخترعات المادية أن ينكر الإنسان علي الإله القادر أن يُوحي إلي أحد عباده ما يشاء ، بواسطة أو بغير واسطة ، تعالي الله عما يقولون علواً كبيراً .

٣- ودليل علمي آخر علي إمكان حدوث الوحي ، يتلخص في التسجيلات الإذاعية ، واسطوانات الكمبيوتر ، وما شابه ذلك .

فقد استطاع العلم الحديث أن يسجل للناس أصواتهم علي جمادات صماء وأصبح الناس يستمعون إلي الأحاديث المسجلة التي تحملها موجات الأثير ، عابرة الوهاد والنجاد ، والسهول والبحار ، دون رؤية أصحابها بل ونستمع إلي الناس في تلك الأحاديث بعد وفاتهم بأعوام وأعوام .

كما استطاع العلم الحديث أيضاً أن يملأ اسطوانات من الجماد الجامد بقرآن وكلام ، وأصوات وأنغام ، علي وجه يجعلها حاكية له بدقة وإتقان وبين أيدينا من ذلك شيء كثير لا سبيل إلي إنكاره ، ومن ذلك علي سبيل المثال لا الحصر أيضاً : بطاقة ذاكرة

(١) مناهل العرفان ١/ ٦٦ وما بعدها.

الهاتف المحمول ، وما يُعرف بالفلاشة ، فانظر إلي حجم هذه المخترعات ، وإلي ما تحويه من مكتبات وبرامج وكلمات وغير ذلك .

أبعد هذه المخترعات القائمة يُستبعد علي الإله القادر تعالي أن يملأ بعض نفوس بشرية صافية من خواص عباده بكلام مقدس يهدي به خلقه ، ويُظهر به حقه ، علي وجه يجعل ذلك الكلام منتقشاً في قلب رسوله ، حتي يحكمه بدقة وإتقان كذلك ؟ [1]

وبعـــــــد :

فهذا ما وفقني الله تعالي إليه في كتابة هذا البحث ، وأحمد الله تعالي علي توفيقه ، وأسأله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجعله في ميزان حسنات والديَّ وحسناتي يوم الدين ، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصل اللهم علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم

(١) مناهل العرفان ١/ ٦٩ وما بعدها بتصرف .

﴿ فهرس المراجع والمصادر ﴾

١- القرآن الكريم . كلام رب العالمين . برواية حفص عن عاصم .

٢- الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار التراث بالقاهرة ، بدون تاريخ.

٣- أساس البلاغة ، للزمخشري ، تحقيق / محمد باسل ، ط دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى سنة ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ .

٤- الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام ، للدكتور/ سعد الدين صالح ، ط الجمعية الشرعية بمصر .

٥- أسباب النزول ، للواحدي ، مكتبة المتنبي بالقاهرة ، بدون تاريخ .

٦- افتراءات المستشرقين علي الإسلام . . عرض ونقد ، للدكتور/ عبد العظيم المطعني، ط مكتبة وهبه بالقاهرة ، سنة ١٩٩٢م .

٧- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المشهور بتفسير الطبري ، ط الحلبي بمصر ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م.

٨- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، للسيوطي ، ط دار الفكر ببيروت سنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، المشهور بتفسير الألوسي ، ط دار الفكر – بيروت – سنة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

١٠- سنن ابن ماجة ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، ط الحلبي بمصر بدون تاريخ.

١١- سنن الترمذي ، ط دار الفكر- بيروت – سنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.

١٢- السيرة النبوية ، لابن هشام ، تحقيق / طه عبد الرءوف سعد ، ط الحلبي بمصر بدون تاريخ.

١٣- الصحاح ، المسمى : تاج اللغة وصحاح العربية ، للجوهري ، تحقيق / شهاب الدين أبو عمرو ، ط دار الفكر – بيروت – الطبعة الأولى سنة ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.

١٤- صحيح البخاري بشرحه فتح الباري، ط دار الريان بالقاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

١٥- صحيح مسلم بشرح النووي، ط دار الحديث بالقاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م.

١٦- القاموس القويم للقرآن الكريم، للأستاذ/ إبراهيم أحمد عبد الفتاح، ط مجمع البحوث الإسلامية بمصر، سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.

١٧- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين الهندي (البرهان فوري)، ت سنة ٩٧٥هـ، ط مؤسسة الرسالة - بيروت- الطبعة الخامسة، سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٨- لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، ط الحلبي بمصر، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

١٩- لسان العرب، لابن منظور، ط دار صادر - بيروت - الطبعة الثالثة سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤ م.

٢٠- مباحث في علوم القرآن، للأستاذ/ مناع القطان، ط مؤسسة الرسالة، سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢١- المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، وبهامشه كتاب التلخيص للذهبي، تحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا، ط دار الكتب العلمية - بيروت -، الطبعة الأولى سنة ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.

٢٢- المستشرقون والقرآن، للأستاذ/ عمر لطفي العالم، ط مركز دراسات العالم الإسلامي، سنة ١٩٩١م.

٢٣- المسند، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق/ أحمد محمد شاكر، وحمزة أحمد الزين، ط دار الحديث بالقاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م.

٢٤- المعجم الوجيز، لمجمع اللغة العربية، ط وزارة التربية والتعليم بمصر، سنة

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٢٥- مفردات غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق/ محمد سيد كيلاني ط دار المعرفة ببيروت، بدون تاريخ.

٢٦- مناهل العرفان في علوم القرآن، للأستاذ/ محمد عبد العظيم الزرقاني، ط دار الفكر - بيروت - سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٧- النبأ العظيم، للدكتور/ محمد عبد الله دراز، ط مكتبة الإيمان ودار الصفوة بالقاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

* إلى غير ذلك من المراجع المذكورة في ثنايا البحث*

والله أعلم

﴿ فهرس الموضوعات﴾

مقدمة ١١١
تمهيد ١١٨
معني الشبهة ١١٨
معني الوحي لغة ١٢٠
معني الوحي شرعاً ١٢٢
طرق الوحي ١٢٢
صور الوحي ١٢٥
الشبهة الأولي ١٣١
الشبهة الثانية ١٣٧
الشبهة الثالثة ١٤٣
الشبهة الرابعة ١٥٨
الشبهة الخامسة ١٦٨
الشبهة السادسة ١٧٦
الخاتمة ١٨٦
فهرس المراجع والمصادر ١٩١
فهرس الموضوعات ١٩٤

والله ولي التوفيق